مهاتما غاندي

رومان رولان

ترجمة عمر فاخوري

مهاتما غاندي

تأليف
رومان رولان

ترجمة
عمر فاخوري

هنـــداوي

مهاتما غاندي

روماين روللان

Mahatma Gandhi

Romain Rolland

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ونسدور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٤ ٣٦١٢ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الفرنسية عام ١٩٢٤.
صدرت هذه الترجمة عام ١٩٢٧.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

الفصل الأول	١٣
الفصل الثاني	٤٣
الفصل الثالث	٥٩
الفصل الرابع	٧٥
الفصل الخامس	٨٩
غاندي بعد إطلاق سراحه	٩٧

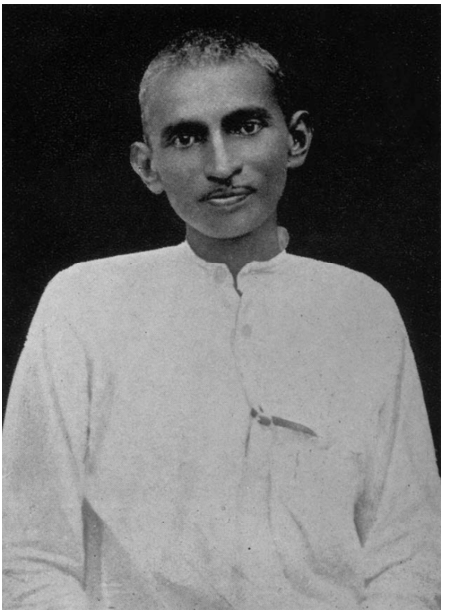

من أولئك «الأوروبيين الأخيار الذين أطلقوا نفوسهم من رق التعصُّب القومي، وجعلوها خالصةً لخدمة الإنسانية جمعاء — تلك الأقلية المضطهدة المؤلَّفة من أناسٍ وطنُهم الدنيا بأسرها، الذين يرفعهم تاغور إلى مقام السانياسين؛ لأنهم حققوا في أنفسهم الوحدة الإنسانية»[1] — رومن روللان مؤلف هذا الكتاب، فإن تصانيفه جميعًا دعوةٌ حارة إلى عناصر الخير في البشر، وحياته برمتها جهادٌ صادق لإعلاء كلمة الروح في هذا العالم المادي البهيمي.

وهو من كبار كتَّاب الفرنسيس بل العالم، تُرجمت تآليفه في أغلب اللغات الحية، وأُنعم عليه بجائزة «نوبل» للأدب عن سنة ١٩١٥ «تنويهًا بما في كتاباته من روحانية سامية، وبما في وصفه مختلفَ نماذج البشر من صدق اللهجة وحنوِّ العاطفة».

وأشهرُ كتب رومن روللان قصة «جان كريستوف» في أربعة مجلدات ضخمة،[2] ولأجلها منحَته الأكاديمية الفرنسية عام ١٩١٣ «جائزة الأدب الكبرى». قال المؤرخ أرنست لافيس، عضو الأكاديمية، محبِّذًا هذا الاختيار: «إن مزية ذلك الكتاب عطفٌ لا يمل، على مظاهر الحياة جميعًا، وهي مزية كل تآليف رومن روللان المعجبة، الغنية بالأفكار والعواطف والصور، المحسِنة لأن صاحبها ملأها حبًّا وحنانًا.»

ويقول الأسوجي سفن سودرمان: «إن مؤلف «جان كريستوف» لمن أجلِّ كتَّاب هذا العصر، فهو مفكِّر قادر وشاعر مطبوع، أنزله كتابُه منزلةً رفيعة في الأدب العالمي.»

---

[1] انظر ص٩٤.

[2] تُرجِمت في اللغات الإنكليزية والألمانية والإيطالية والإسبانية والبولونية والهولاندية والدنمركية.

ومنذ بضعة أشهُر أصدرت مجلة Europe جزءًا ممتازًا موضوعه «رومن رولان»، اشترك فيه كثير من كتَّاب الفرنسيس وسائر الأمم، فوفَّوا هذا الأديبَ الكبير حقَّه من الثناء، وتآليفَه حقَّها من الدرس.

وآخِر ما أَلَّفه رومن رولان سيرة مهاتما غاندي التي نتقدَّم بها إلى الناطقين بالضاد، راجين أن يتقبَّلوها قَبولًا حسنًا.

الروح الكبرى مهاتما[1] ...
الإنسان الذي اتَّحد بالموجود الأعظم.

[1] هذا هو معنى الاسم الذي أطلقه الشعب الهندي على غاندي؛ ماها: كبيرة. أتما: نفس. واللفظ وارد في الأوبانشادا دلالةً على الموجود الأسمى، وعلى الذين يتَّحدون به بقُربى المعرفة والمحبَّة:

هو الواحد المنير خالق كل شيء، المهاتما
المكين في قلوب الناس،
الدال عليه القلبُ والعقل والوجدان،
مَن عرفه فهو مِن الخالدين.

هذه الآية الجميلة تمثَّلَ بها تاغور لما زار في ديسمبر سنة ١٩٢٢ «الأشرم»؛ أحبَّ خلوات غاندي إلى نفسه.

الفصل الأول

عينان سوداوان مُطمئِنتان، رجل قصير القامة نحيل، رقيق الوجه، ذو أذنَين كبيرتَين منفرجتَين، على رأسه قلنسوة بيضاء، مرتدٍ قماشًا خشنًا أبيض، حافي القدم، طعامه الأرز والفاكهة، ولا يشرب إلا ماء، لا يضطجع على فراش وينام قليلًا. لا يفتأ يعمل، كمَن لا يحسب لبدنه حسابًا. لا يأخذ بصرك منه لأول وهلة إلا مظهرَ صبرٍ طويل وحبٍّ عظيم. ولقد رآه برصن عام ١٩١٣ في أفريقية الجنوبية، فذهب فكره إلى القديس فرانسوا الأسيزي … هو ساذج كالطفل،[١] لطيف ليِّن العريكة حتى مع خصومه.[٢] أمَّا صِدقه وإخلاصه فمُبَّرآن من كل سوء،[٣] ينظر إلى ذاته بتواضع، وهو شديد المحاسبة لها، حتى إنه أحيانًا يقع في الحيرة ويقول: «أخطأت.» ولا يكتم هفواته قَط. لا يصالح ولا يحابي، ولا يلجأ إلى خِدَع الساسة وحِيَلهم. يتحاشى التأثير بالأساليب الخطابية، بل لا يخطر له ذلك ببال.[٤] يكره تظاهُرات العامة بتمجيد شخصه، وهي تظاهرات كادت تُودي بجسمه الضعيف أحيانًا،

---

[١] يزيد س. ف. أندريوس قوله: «يضحك كالطفل، ويعبد الأطفال.»

[٢] «قلَّ بين الناس مَن يستطيع مقاوَمة السحر المنبعث من شخصيته، فإن أُنسه ولُطفه يجعلان ألدَّ خصومه متهيِّبين متأدِّبين» (جوزف ج. دوك).

[٣] «كل حَيْدٍ عن الحقيقة، وإن جاء عرَضًا، فلا يطيق احتماله» (س. ف. أندريوس).

[٤] «ليس غاندي خطيبًا مستشيطًا هائجًا؛ فهو يمضي في خطبه ببطءٍ وسكينة، ويغلب عليه مخاطَبة الأفهام، لكن سَكينته ترسل على المواضيع التي يتناولها أزهرَ الأنوار. ليست نبرات صوته متنوِّعة شتى، ولكنها تنمُّ جميعًا عن صدقٍ وإخلاص عظيمَين. لا يحرِّك ذراعَيه قَط، وقلَّما يشير بإصبعٍ متكلمًا. أمَّا كلامه النوراني المؤلَّف من جُمل جامعة نابضة العصب، فهو مُنطوٍ على قوة العقيدة واليقين. لا يغادر مسألةً إلا إذا ثبَت له أنها فُهِمت أجود فَهم» (جوزف ج. دوك).

لولا أن صديقه مولانا شوكت علي كان ينصب من جثته الكبيرة سدًّا منيعًا دونه. مريض، حقيقة لا مجازًا، لعبادة العامة إياه.[٥] وهو في أقصى ضميره كثيرُ الاحتراس من الجمهور الغفير، شديدُ الكراهة للمبقراطية أو حكومة الغوغاء المطلِقي القياد. لا يطمئنُّ باله ولا تسعد نفسه إلا في العزلة؛ حيث يطرق سمعه «الصوت الخفيت الساجي» الذي يقضي بالحق ...[٦]

هذا هو الرجل الذي أثار ثلاثمائة مليون رجل، وزعزع أركان الإمبراطورية البريطانية، وأحدث في سياسة البشر أعظمَ حركة عرفها التاريخ منذ نحو ألفَي عام.

أصلُ اسمه مهنداس كرمشند غاندي، وُلد في دويلة نصف مستقلة واقعة في الشمال الغربي من القُطر الهندي، في بوربندر المدينة البيضاء على ساحل بحر عمان، وذلك في ٢ أكتوبر عام ١٨٦٩. وأهل هذه المقاطَعة أشداء كثيرو الشغب، وليسوا بعيدي العهد بالفتن والحروب الأهلية، وهم أيضًا عمليُّون حسَنو النظر في الأشغال، أزهرت تجارتهم بين عدن وزنجبار. كان جدُّه وأبوه وزيرَين كبيرَين، جلب كلٌّ منهما لنفسه النقمة باستقلاله في الرأي والعمل حتى اضطرَّ إلى الفرار غير آمِن على حياته؛ فغاندي نبَت إذًا في بيئةٍ غنًى وذكاءٍ وثقافة، لكنه لا ينتمي إلى الطائفة العليا، وكان أهله من الدين الهندوسي على مذهب «جايين» الذي من أَجلِّ مبادئه الأهمسا،[٧] وهو مبدأ صدع به غاندي ونصَره في العالم.

ويعتقد الجاييّنيون أن سبيل الحب خير من سبيل الفهم للوصول إلى الله. لم يكن للمال قيمةٌ في عين والد المهاتما، فلم يخلف لأهله إلا اليسير، وأنفق أكثر ما يملكه صدقة. أمَّا أمه فكانت غاية في الصلاح والورع، حتى لَيصدق القول إنها للهند كالقديسة اليصابات، قضت عمرها في الصلاح وأعمال البر والعناية بالمرضى. وكانوا في العائلة يتلون «الرامايانا» بصورة منتظمة، ولقد عُهِد بتربيته الأولى إلى أحد البراهمة، فكان يقرأ عليه نصَّ «الفشنو»،[٨]

---

[٥] من مقالة لغاندي في جريدته Young India (الهند الفتاة)، ٢ مارس ١٩٢٢.

[٦] أيضًا.

[٧] آ: النافية. هِمسا: فِعل الشر. عدم الإساءة لمظاهر الحياة كلها، اللَّاشر؛ هو من أقدم مبادئ الدِّين الهندوسي، عُني بإثباته خاصةً «مهافيرا» مؤسِّس الجاييّنية، وبوذا ودُعاة عبادة فشنو. ولهذا المبدأ سلطانٌ كبير على نفس غاندي.

[٨] درَس حتى السابعة من عمره في مدرسة بوربندر الابتدائية، ثم في مدرسة راجكوت الأميرية، وبعد العاشرة في المدرسة العليا (High School) في كاتيافار، وفي السابعة عشرة في جامعة أحمد آباد.

لكنه شكا بعدُ من قلة براعته في السنسكريتية، وكان هذا من أكبر دواعي سخطه على التربية الإنكليزية التي ضيَّعت عليه كنوزَ لغته، وهو برغم حِذْقه الكتب الهندية المقدَّسة، لا يقرأ كتب الفيدا والأوبانشادا إلا في ترجماتها.[٩]

واجتاز إذ كان في المدرسة أزمة «دينية» ذات شأن؛ فكان — بل حسب نفسه — ملحِدًا؛ لأنه ثار على الهندوسية التي تسرَّبت إليها الوثنية وأخرَجها الفساد عن أصلها، وبلغ به الكفر أن أكَل وبعض رفاقه اللحمَ سرًّا (أعظم المعاصي عند الهندوسيين)، وكاد يقضي بعدها اشمئزازًا وفرَقًا.

زُوِّج وهو يافع،[١٠] ثم سافر في التاسعة عشرة إلى إنكلترة لإنجاز دروسه في جامعة لندن ومدرسة الشريعة، ولم تأذن له أمه بالسفر إلا بعد أخْذِها عليه العهودَ الجاييِنية الثلاثة التي تأمر باجتناب الخمر واللحم والنساء.

وصل إلى لندن في سبتمبر سنة ١٨٨٨، فأتت عليه أشهُرُ حيرةٍ وخيبة أسرَفَ خلالها في ماله ووقته، ولا همَّ له على حد قوله إلا أن يصبح من «عِلية» الإنكليز، ثم راضَ نفْسَه على معيشة بسيطة، وعمل صارم. وأطلعه بعض أصدقائه على الكتاب المقدَّس، لكن لم يئن له بعدُ أن يفهمه، فاعتَرَته السآمة من الأسفار الأُوَل، ولم يتعدَّ سِفرَ الخروج، بيد أنه كُشف له وهو في لندن عن جمال «البغفاد جيتا» فأثمله، وفاض من هذا الكتابِ النورُ الذي كان يشعر الفتى الهندي بالحاجة إليه، فردَّ الإيمانَ إلى صدره، وتيقَّن أن «النجاة لن تأتيه إلا من سبيل الديانة الهندوسية».[١١]

عاد إلى الهند سنة ١٨٩١ عودًا أليمًا؛ كانت أمه أدركَتها الوفاة وكتموه الخبر. تعاطى المحاماة لدى المحكمة العليا ببمباي، ولكنه سيهجر هذه المهنة بعد بِضع سنين اعتقادَ أنها مغايِرة للأخلاق الفاضلة. وكان في اشتغاله بها يشترط أن يكون له حقُّ ترك القضية متى تبيَّن أنها ليست عادلة.

---

[٩] حكى حكاية صِباه في خطبة سمرية ألْقاها على مؤتمر الطوائف النجسة (الباريا)، في ١٣ أبريل ١٩٢١.

[١٠] خُطِب له وهو في الثامنة، وتزوَّج في الثانية عشرة، ولقد أقام النكيرَ بعدُ على طريقة تزويج الأولاد، وحجتُه أن هذا من عوامل اضمحلال النوع، لكنه يستدرك بقوله: إنه يجوز استثناءً أن يحصل من هذا الزواج المعقود قبل تكامل الخلق تآلُفٌ عجيب بين الزوجَين ووَحدة روحية. وما زواج غاندي نفسه إلا مثال من ذلك جدير بالإعجاب، فإن عقيلته شاطَرَته أَبؤُسَه ونكباته بشجاعة ووفاء لم يُعثرا قَط.

[١١] من خطبة له في ١٣ أبريل سنة ١٩٢١.

كان بعض عظماء الهند في ذلك العهد يوقظون في نفسه حدْسًا وتوقعًا لمهمته القابلة، ولُقِّب بـ «ملِك بمباي غير المتوَّج»؛ فمن هؤلاء الرجال البارسي دادابي والأستاذ غو كهيل، وكلاهما يشتعل حبًّا للهند وغيرة دينية عليها؛ غو كهيل من خيرة رجال الحكم في وطنه، وأحد السابقين إلى إحياء التربية الهندية. دادابي مؤسِّس القومية الهندية (بشهادة غاندي)،[١٢] وكلاهما أيضًا قُدوة حسَنة بالحكمة والحلم ودماثة الخُلق. كان دادابي أولَ راعٍ لحماسة غاندي في شبيبته، وعنه تلقَّى أول درس عملي في الأهمسا وشأنه في الحياة السياسية. الأهمسا أعني الانفعال أو الصبر البطولي إذا جاز جمع اللفظَين، أو نزعة النفس المضطرمة إلى مقاوَمة الشر، ليس بالشر بل بالحب، وسنعود إلى الكلام على هذا اللفظ الساحر، بل الرسالة العلوية التي تؤدِّيها الهند إلى العالم أجمع.

في عام ١٨٩٣ بدأ جهادُ غاندي في سبيل الهند، ولقد مر على هذا الجهاد طَوْران: فمن ١٨٩٣ إلى ١٩١٤ كان الميدان أفريقية الجنوبية، ومنذ ١٩١٤ أصبح الميدان الهند بعينها.

عمل الرجل في أفريقية الجنوبية مدةَ عشرين سنة، فأما ولم يكن لَمْسَاه هذا صدًى في أوروبة، فأي دليل أعظم على ما لا يكاد يصدق من ضِيق الأُفق الذي تَجول فيه أنظار ساستنا ومؤرِّخينا والمفكرين ورجال الإيمان؛ ذلك أنَّ من مساعي غاندي تتألَّف سيرةُ نفسٍ مجاهِدة لا مثيلَ لها في هذا العصر، ليس بعِظَم التضحية واستمرارها فحسب، بل بما استتبَّ لها كذلك من النصر المبين في النهاية.

كان في أفريقية الجنوبية، وبخاصة في النتال سنة ١٨٩٠–١٨٩١ نحو من خمسين ألف هندي، فحرَّك فيضُ هذا الشعب الغريب عاطفةَ بُغضِ الأجنبي في قلوب البيض أهل البلاد، وأخذت الحكومة على نفسها الإفصاحَ عن هذه البغضاء بتدابير قاسية أرادت بها كفَّ الآسيويين عن الهجرة إلى تلك الديار، وإكراه القاطنين فيها على الرحيل؛ فقامت الاضطهادات المنظَّمة التي تستنفد الصبر، من الضرائب الفادحة إلى التكاليف المذِلَّة، فالإهانات المشهودة، وبلغ الأمر بالأهالي أن يشنقوا الهندي جهارًا (قضاء الشعب)، أو ينهبوا مَتاعه، أو يهدموا داره، وكل ذلك في ظلِّ المدنية البيضاء.

[١٢] هذا السلف نسِيهم الجيلُ الجديد وعقَّهم؛ لأنه أربى عليهم جرأةً سياسية، لكن غاندي ما فتئ حافظًا حرمتهم، مجِلًّا إياهم، لا سيما غو كهيل الذي ربطته به عروةُ ودادٍ وثيقة، وكثيرًا ما قدَّم اسمه واسم دادابي، في مختلِف كتاباته؛ لتعظمهما الهند الجديدة.

وصَل غاندي إلى أفريقية الجنوبية سنة ١٨٩٣ مدعوًّا إلى «بريتوريا» ليرافِع في قضيةٍ ذات شأن، على غير عِلم منه بشيء من أحوال الهنود في ذلك القُطر، فما خطا خطواته الأولى في النتال، لا سيما في الترنسفال الهولاندي، إلا اخْتُبِر اختبارات موجِعة. هذا الهندي الشريف الأصل الذي كان موضعَ الإكرام في إنكلترة، والذي لم يَسبق له أن نظَر إلى الأوروبيين بغير عين القرين والصديق، إذا به عرضة لأحطِّ القبائح وأشدِّها فظاظةً؛ يُطرد من النُّزل، ويُقذف من القطارات، ويُهان ويُصفع ويُركَل بالرجل، ولولا أن في يده عقدًا يربطه بموكِّليه مدة عام لأُعيد إلى وطنه بلا إبطاء. اثنا عشر شهرًا تعلَّم فيها كيف يصبر على المَكاره مسيطرًا على نفسه، فلما أتى الميعاد، وكان أعجل ما يكون إلى الرحيل، علم أن الحكومة تُعِد قانونًا تسلب به الهنود ما بقي لهم من حقوق وحرية، وكان الهنود ضِعافًا عن المقاوَمة ولا عزيمة، أشتاتًا ولا انتظام، راضين بسُوء المآل ولا أمل، يعوزهم زعيم وروح، فوقَف غاندي نفسه على ذلك، وبقي.

وحينئذ بدأ الجهاد العظيم، جهادُ وجدانٍ فذ في قوة الحكومة والجماعة المتوحشة، وكان غاندي بعدُ محاميًا، فبدأ بإثبات بطلان القانون القاضي بطرد الآسيويين شرعًا، حتى أرغم أنف المعارَضة الشَّمُوخ، وربح دَعواه في نظر النتال ولندرة قانونيًّا، إن لم يكن عمليًّا. واجتهد في ختم معاريض عريضة، وفتح مؤتمر النتال الهندي، وألَّف جمعية التربية الهندية، ثم أنشأ جريدةً باسم «الرأي الهندي» تُحرَّر بالإنكليزية وبثلاث لغات هندية، وعقَد النية على رفع مستوى مُواطنيه في أفريقية؛ فأول عملٍ أتاه أنه تمثل بهم ليكون أجدرَ بالذَّوْد عن مَصالحهم، وأقدرَ على دفع المضارِّ عنهم. كان زبائنه في جوهانسبورغ من ذوي المكانة واليسار،[١٣] فتركهم وتزوَّج الخصاصة مقتديًا بالقديس فرانسوا، وعاش عيشة الهنود الصعاليك المضطهَدين، مشاركًا إياهم في مِحَنهم وبَلاياهم بعد أن طهَّرها وقدَّسها؛ إذ ألزمهم بقاعدة اللامقاومة. ونظم سنة ١٩٠٤ في فونيكس على مقربة من دوربان مستعمَرةً زراعية على الخطط التي وضَعها تولستوي، وكان غاندي به معجَبًا.[١٤] فجمَع فيها الهنود ووزَّع بينهم الأرضين بعد أن أخَذ عليهم عهدًا مقدَّسًا على الفقر، وهو

[١٣] كان يربح سنويًّا — بشهادة غو كهيل — من خمسة آلاف إلى ستة آلاف جنيه، فقنع بثلاثة جنيهات شهريًّا.

[١٤] نشَر العدد الذهبي من جريدة «الرأي الهندي»، الصادر في فونيكس سنة ١٩١٤، رسالة ضافيةً من تولستوي إلى غاندي كُتبت في ٧ سبتمبر سنة ١٩١٠؛ أيْ قُبيل وفاته. وكان تولستوي اطَّلع على «الرأي

آثر نفسَه بأحقر الأعمال وأخسِّها. هنالك قاوَم هذا الشعب الحكومةَ صامتًا، سنين طوالًا؛ هجر المدن، فشُلَّت حياة البلاد الاقتصادية، هو اعتصابٌ ديني يفلُّ سيفَ العنف ويحطِّمه كما انحطم سلطانُ رومة أمام النصارى الأولين، ولكن قلَّ في أولئك النصارى مَن سما بدِين المحبَّة والغفران إلى الدرجة الرفيعة التي بلَغها غاندي؛ إذ كان يبادر إلى نجدة المضطهِدين أنفسهم كلما رآهم في ضِيق، فكان غاندي لما تُعرَّض دولة أفريقية الجنوبية للمَخاطر الجسيمة، وتُشغل بدفعها، يوقف حكم قاعدة اللامعاوَنة من قِبل الهنود في المصالح العامة ودواوين الحكومة، ويعرض معونته. ولقد ألَّف أثناء الحرب البويرية سنة ١٨٩٩ فرقة الصليب الأحمر الهندية التي ذُكرت في بيان القيادة مرتَين، مشهودًا لها بالشجاعة تحت النيران. ولما فشا الطاعون في جوهانسبورغ عام ١٩٠٤، نظَّم غاندي مستشفًى. وفي ١٩٠٦ ثار الأهلون بالنتال، فاشترك غاندي في الحرب وهو على رأس فرقة من نقالة الجرحى، وأثنَت عليه حكومة النتال بصورة مشهودة.

ولكن ما كان لهذه الخِدَم الكريمة السمحاء أن تجرِّد بغضاء الأجنبي من سلاحها، فأُلقي غاندي في غيابة السجن مرارًا[١٥] — حتى بعد ثناء الحكومة لبلائه في حرب النتال — وحُكم عليه بالأشغال الشاقة، وجَلَده الرَّعاعُ يومًا وهم في سَوْرة الغضب،[١٦] ومرة تركوه طريحًا إذ حسبوه ميتًا؛ وهكذا عرف غاندي العذابَ بأنواعه، والذلَّ بضروبه، والألم والهوان، إلا أنه لم يؤثِّر شيءٌ في قوة إيمانه، بل كانت البلايا تزيدها. ووضَع سنة ١٩٠٨

الهندي»، فشرح صدرَه ما قرأه فيها عن اللامقاوَمة الهندية، وجاء يشجِّع دُعاتها قائلًا: «إن اللامقاوَمة ناموس الحب؛ أيْ إنه تطلُّعٌ وتسامٍ إلى تواصل النفوس الإنسانية.» وهو الناموس الذي جاء به المسيح وحكماء العالم جميعًا. وقد عثر صديقنا بول بيروكوف في ديوان مخطوطات تولستوي بموسكو على رسائل أخرى من الحكيم الكبير إلى غاندي، وسينشرها في مجموعة رسائل تولستوي إلى الآسيويين بهذا العنوان الجامع: «تولستوي والشرق».

[١٥] حكى غاندي حكاية سجنه واختباراته في السجن ببساطةٍ هادئة في مقالة عجيبة تجدها في المجموعة المسماة: خطب ومقالات م.هـ. غاندي، المطبوعة في مدراس، ص١٥٢–١٧٨.

[١٦] ونفسُ مواطنيه انهالوا عليه ضربًا بالعِصِي سنة ١٩٠٧، فلا تَنسَ أنه ذاق الأمرَّين، واحتمل العنف والإساءة من المضطهِدين والمضطهَدين على السواء، وكان يُريب هؤلاء من غاندي اعتدالُه، والحكومة لم تألُ جهدًا في جعله عُرضةً للشُّبهات وفي إضاعة سُمعته.

كُتَيِّبه المشهور «هند سواراج» (الحكم الذاتي الهندي)، إنجيلَ المحبَّة البطولية الذي ردَّ به على دُعاة العنف في أفريقية الجنوبية.[١٧]

دام الجهاد عشرين سنة، وبلغ أقصى الشدَّة بين عامَي ١٩٠٧ و١٩١٤، وكانت حكومة أفريقية الجنوبية قد عجلت إلى إصدار قانون آسيوي جديد غير مُبالية بمعارَضة الفئة النيِّرة من الإنكليز، فنظَّم غاندي حينئذٍ خطةَ اللامقاوَمة بتمامها وشمولها. وفي سبتمبر سنة ١٩٠٦ اجتمع الهنود في جوهانسبورغ، فحلفوا يمين «المقاوَمة الانفعالية»، وأصبح الآسيويون جميعًا بلا فَرقٍ في الجنس والدين والمقام، أغنياؤهم وفقراؤهم، سواءً في المفاداة وصِدق العزيمة، واتحد صينيُّو أفريقية بالهنود اتحادًا وثيقَ العُرى. كانوا يُساقون إلى السجون آلافًا، فلما ضاقت بهم سِيقوا إلى المناجم، فكأن في السجن ما يستهويهم ويجذبهم حتى سمَّاهم الجنرال سمطس، الذي كان يضطهدهم، «المعارضين عن عمدٍ ويقين»، وحبس غاندي ثلاثَ مرات،[١٨] وكان منهم قتلى بل شهداء. وعَظُمت هذه الحركة وامتدَّت سنة ١٩١٣ من الترنسفال إلى النتال، فكان الهنود يُضرِبون عن العمل جماهيرَ زاخرة، ويعقدون اجتماعات عامة تتلظَّى حَمِيَّة، ويمشون في بلاد الترنسفال مشية الرجل الواحد؛ فأثار هذا كلَّه الرأيَ العام في أفريقية وآسية، وسرى السخط في الهند حتى اضطرَّ نفس نائب الملِك اللورد هاردنغ إلى التصريح به في مدراس إعلانًا عن عواطف الهنود.

على هذه الصورة كان سِحر الروح الكبرى وعزيمتها الصادقة التي لا تُغلب يفعلان فِعلهما، وعفرت القوة ركبتَيها راكعةً أمام الوداعة البطولية.[١٩] بل إن ألدَّ خُصوم القضية الهندية وأشدَّهم عداءً، الجنرال سمطس — الذي صرَّح سنة ١٩٠٩ بأنه لن يمحو من سجلِّ القوانين قرارًا مهينًا للهنود — أقرَّ لخمس سنوات خلَت أنه سعيد بنَسْخ ذلك القرار وإبطال حُكْمه.[٢٠] واعترفت اللجنة الإمبراطورية التي أُلِّفت بأن غاندي محقٌّ في جُلِّ

---

[١٧] سنعود إلى الكلام عنه.

[١٨] يختم جوزف ج. دوك — الذي كشفت محاوراته مع غاندي في الترنسفال عن حقائق ذات بال — كتابَه المطبوع في أكتوبر سنة ١٩٠٨، بنبذة أتى فيها على وصف غاندي وهو بثياب المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، وكيف سِيق إلى حصن جوهانسبورغ وأُلقي في حبس مظلم مع مجرمين صينيين عاديين في الدَّرْك الأسفل.

[١٩] عضَد غاندي عضْدًا شديدًا إنكليزيان من كِرام الإنكليز، هما س. ف. أندريوس، وف. ف. برصن.

[٢٠] أشار غاندي، مذكِّرًا، إلى هذا الأمر في مقالة نُشرت في ١٢ مايو ١٩٢٠.

مَطالبه، وصدر سنة ١٩١٤ قرار يلغي ضريبة الثلاثة جنيهات ويمنح حرية الإقامة بالنتال جميعَ الهنود الذين يهبطونه ويستوطنونه عمَّالًا مستقلِّين، وهكذا نصرت اللامقاوَمة بعد تضحيات استمرَّت عشرين عامًا.

عاد غاندي إلى الهند، وله في القلوب هيبة الزعيم.

كانت حركة الاستقلال الوطني قد بدرت منذ بداية هذا القرن، وكان بعض أذكياء الإنكليز أ. د. هيوم والسر ويليام ودربرن، من الأحرار الفكتوريائيين، قد أسَّسوا منذ ثلاثين عامًا المؤتمرَ الهندي الوطني، وأبقوا فيه مدة طويلة على صبغة الولاء، دائبين للتوفيق بين المصالح الهندية والسيادة الإنكليزية. فلما أيقظ انتصارُ اليابان على روسية الأنفةَ الآسيوية، وجرحَت تحديات اللورد كرزن وطنيِّي الهنود، نشأ في قلب المؤتمر حزبٌ متطرِّف كان لرأيه في الوطنية الهاجمة غير المسالِمة صدًى في البلاد، إلا أن الحزب الدستوري القديم استمرَّ حتى نشوب الحرب الكونية، بتأثير ج. ك. غو كهيل، صادق الوطنية، ولكن صادق الولاء لإنكلترة. والشعور الوطني الذي تخلَّل في ذلك الزمن مجلسَ النوَّاب الهنود كان يسيِّرهم جميعًا في سبيل المطالبة بحكم ذاتي (سواراج)، هم غير متفقين على دلالته ومعناه، فكان بعضهم قانعًا بالمساعدة الإنكليزية، بينما البعض الآخَر لا يرضى إلا بطرد الأوروبيين من الهند. وبينما كانت أنظار فريق منهم طامحةً إلى مثال الكندا وأفريقية الجنوبية، كانت نفوس الفريق الآخَر طامعة بمثال اليابان؛ حينئذٍ جاء غاندي بالحلِّ الجديد، وهو أقرب إلى أن يكون حلًّا دينيًّا منه إلى أن يكون حلًّا سياسيًّا، وأشد غلوًّا في الحقيقة من كل ما عداه؛ «هند سواراج». ولكن كان يعوز غاندي كي يخرِجه إلى حيز الفعل، المعرفة الصحيحة بالوسط والبيئة؛ لأنه إذا كان في مهمته الطويلة بأفريقية الجنوبية قد وُفِّق إلى أعظم تجرِبة للروح الهندي وسلاح الأهمسا الصارم، فلقد مكث هنالك ثلاثًا وعشرين سنة بعيدًا عن وطنه؛ لذلك اعتزل غاندي مستجمِعًا قواه لملاحظة ما حوله وتدبُّره.[٢١]

وكان لا يزال بعيدًا عن الافتكار بالثورة على الإمبراطورية البريطانية، حتى إذا نشبت الحرب سنة ١٩١٤، أَمَّ إنكلترة لتأليف فرقة من نقالة الجرحى. «كان يعتقد اعتقادًا صادقًا (كما كتَب سنة ١٩٢١) أنه من أبناء الإمبراطورية»، وسيذكِّر بهذا الأمر مراتٍ في رسائله الموجَّهة (سنة ١٩٢٠) إلى جميع إنكليز الهند: «أيها الأصدقاء الأعزاء، لم يعضد

[٢١] كان معلمه الحبيب غو كهيل آنئذٍ قد أخذ منه وعدًا بألَّا يتدخَّل في السياسة الفعلية قبل تَطْوافه في الهند لا أقلَّ من سنة، فيرى عن كثب بني قومه بعد غيبته الطويلة وانقطاعه عنهم.

الإمبراطورية إنكليزيٌّ خيرًا من عضدي، خلال تسعٍ وعشرين سنة من حياتي العامة ... عرَّضت نفسي لخطر الموت في سبيل إنكلترة أربعَ مرات ... وأوصيت بالاشتراك والتعاون عن اقتناع صحيح حتى سنة ١٩١٩.»

ولم يكن هذا شأنه هو وحده، فإن الهند جميعها سنة ١٩١٤ أُخِذت في شباك المبادئ الخادعة التي راءَت بها حرب الحقوق، ولما سألتها الحكومة الإنكليزية المَعونةَ منَّتها بالآمال الجِسام، وأوهَمَتها أن ذلك الحكم الذاتي الذي طالما طمحَت إليه يكون من غنائم هذه الحرب الضَّرُوس. وفي أغسطس سنة ١٩١٧ وعدها أ. س. مونتاغو، وزير الهند الذكي، بتأسيس حكومة مسئولة، وبعد استفتاء الأمة وقَّع نائب المِلك اللورد شلمسفورد ومنتاغو بيانًا رسميًّا عن الإصلاح الدستوري. كانت جيوش الحلفاء في الشهور الأولى من سنة ١٩١٨ في خطر جِسيم، وكان لويد جورج قد وجَّه في ٢ أبريل نداءً إلى الأمة الهندية، وفي آخِر هذا الشهر أيضًا عُقِد مؤتمر الحرب بدلهي، ففُهِم مما دار فيه أن استقلال الهند دانٍ غير بعيد؛ لذلك لبَّت الهند ذلك النداءَ بالإجماع، ومنَح غاندي إنكلترة مرة أخرى ولاءَه وإخلاصه، وأعطت الهند ٩٨٥٠٠٠ من أبنائها، وقامت بتضحيات عظيمة، ثم انتظرت مطمئنة أن تُؤدي ثمنَ حفظها العهد.

لقد كانت اليقظة رهيبة، الخطر في آخِر العام زال، وزالت أيضًا ذِكرى الخِدَم المَقضيَّة. وإذ وُقِّع عقد الهدنة أصبحت الحكومة لا تكلِّف نفسها مؤنة الستر والمداجاة، وكأنما لم يكْفِها أنها حنثت ولم تمنح الهند ما وعَدَتها من الحقوق والحرية، فسلبتها أيضًا ما كان لها من قبل. وكشفت قوانين رولات المعروضة في ٢ فبراير سنة ١٩١٩ على المجلس الإمبراطوري التشريعي بدلهي عن أفحش ما يكون من سُوء الظن بالأمة التي أقامت هذا المقدار من الأدلة على إخلاصها وولائها، فإن هذه القوانين جاءت بدوام الأحكام والتدابير التي تضمَّنها صكُّ الدفاع عن الهند، زمن الحرب، مرجِعةً الشرطة الخفيَّة والمراقَبة وسائر ما ينتج من حالة الحرب أو الحكم العسكري من القيود والمزعِجات العاتية؛ حينئذٍ سرت في الهند المخدوعة الخائبة رجفةُ غضبٍ شديد، وبدأت الثورة،[٢٢] فنظَّمها غاندي.

كان غاندي فيما سبَق من السنين قاصرًا عملَه على الإصلاحات الاجتماعية، لا سيما على رفع مستوى عمَّال الفلاحة وتحسين أحوالهم، لكنه جرَّب في قلاقل ١٩١٨ وأثناء الفِتن

[٢٢] يمكِن تأريخ الحركة الصاتياغرافية بالثامن والعشرين من فبراير سنة ١٩١٩.

الزراعية التي اضطرمت في كيرا، من أعمال الغوجرات، وفي شمباران، من أعمال البيحار (ولم يسترعِ هذا ذهن أحد)؛ ذلك السلاح الصارم الذي سيقاتل به في جهاده الوطني العظيم؛ أعني اللامقاوَمة الشديدة الخاصة به، وسندرسها فيما بعدُ باسم الصاتياغرافا الذي أطلَقه عليها.

بيْدَ أنه لم يكن حتى سنة ١٩١٩ على رأس الحركة الهندية الوطنية، بل كان بمعزل عنها نوعًا ما، وكانت الأحزاب المتطرفة التي ألَّفتها سنة ١٩١٦ المسز أني بيزانت (وهذه ما لبثت أن سُبقت) قد رأست الزعيم الهندي الكبير لقمانيا بل قندهار طيلاق، وهو رجل أُوتي عزيمة نادرة، وجمَع في حُزمة حديدية ثالوث العظمة: الذكاء، والإرادة، والخُلق. دماغ أرحب من دماغ غاندي، وهو أوفر قسطًا من الثقافة الآسيوية العتيقة وأشد تمكُّنًا فيها، عالم، رياضي، واسع الاطِّلاع، ضحَّى بمطالب نبوغه لخدمة وطنه، وهو كغاندي خليٌّ من كل مَطمع شخصي، لا يرجو إلا فوز قضيته، فيدع ساحة العمل ويعود إلى أبحاثه العلمية. كان كل حياته زعيم الهند بلا مُنازع. ماذا كان يحصل لو لم يختطفه موتٌ عاجل من وسط شعبه سنة ١٩٢٠؟ إن غاندي الذي كان متخشعًا أمام عِظَم نبوغه اختلف وإيَّاه على الطرق السياسية، ولا ريب في أنه لو بقي طيلاق حيًّا لما كانت لغاندي غير الزعامة الدينية للحركة. ماذا تكون نهضة الهند ووثبتها بهذه القيادة المزدوجة؟! إذًا لَمَا ثبت في وجهها شيء؛ لأن طيلاق كان مالكًا سُؤْددَ التنفيذ والعمل، كما كان لغاندي سُؤْددَ القوى الباطنة. ولكن القدَر لم يشأ ذلك، فكان مَدعاة أسف من أجل الهند ومن أجل غاندي نفسه؛ لأن مقام زعامة الأقلية أو الخاصة أو الصفوة المفكِّرة، أولى بما طُبع عليه غاندي وبما يُضمِره من رغبات؛ فهو لم يثِق يومًا بالعامة، بينما كانت لطيلاق هذه الثقة، فإن هذا الرياضي العامل كان مؤمنًا بالعدد، وكان ديمقراطيًّا فطرةً. كذلك كان سياسيًّا عن عمد، لا يبالي مَطالب دينه، وكان يقول: «ليست السياسة للصاخو.» أيْ للقديسين والأتقياء. كان هذا العالم على استعداد لأن يضحِّي بالحقيقة في سبيل تحرير بلاده كما صرَّح. هذا الرجل العفيف الكامل الذي لم تَشُب حياتَه شائبة، كان لا يُحجِم عن القول: إن كل شيء حسَن في السياسة. وليس ما يمنع الاعتقاد أنه كان من الممكن حصول صلات فكرية بين هذه الشخصية وبين ديكتاتورية موسكو. أمَّا فكر غاندي فغيرُ مؤاتٍ لشيء من هذا القبيل.[٢٣] والمناقشات التي

[٢٣] قُضِي صراحةً على البلشفية (٢٤ نوفمبر ١٩٢١).

دارت بين طيلاق وغاندي لم يكن من شأنها، مع توكيد الاحترام العظيم المتبادل بينهما، إلا أن تثبِت ما بين طريقتَيهما من التضاد؛ أعني — وهما رجلان متَّصفان بالصِّدق المطلق، منسوجةٌ صورُ العمل عندهما على منوال صور الفكر — التضادَّ بين المبادئ الأساسية التي تسيطر على حياتهما؛ فغاندي يجهر أمام طيلاق بأنه إذا خُيِّر مكرَهًا، آثَر الحقيقةَ وضحَّى بالحرية، ومهما يكن حبه الديني لوطنه، فهو جاعل دينه في مقام أسمى أيضًا من وطنه:

«أنا متزوج الهند مَدين لها بكل شيء، وأعتقد أن عليها مهمة، فإن قصرت عن أدائها فهي إذًا ساعة محنتي وبلائي، وأرجو أن لا أزلَّ أو أقصِّر أنا. ليس لديني حدود جغرافية، إذا كان إيماني حيًّا فهو يجاوز حبي الهند نفسها ويفيض عنه ...»[٢٤]

كلمات جليلة سامية تُودع في الجهاد الذي سنصف أطواره كلَّ دلالته الإنسانية؛ لأنها تجعل رسول الهند رسولًا إلى العالم أجمع ومواطنًا لنا جميعًا،[٢٥] فإن مِن أجلنا أيضًا وفي سبيلنا ما ينشب القتال الذي يخوضه المهاتما منذ أربعة أعوام.

مما هو جدير بالذكر أن غاندي إذ ترأَّس حركة العصيان على قانون رولات، لم يُقدِم على ذلك إلا «لصرف هذه الحركة عن طريق العنف»،[٢٦] كان العصيان حاصلًا لا محالة، فتحتَّمت إدارته.

ولا يَعزب عن بالنا لاكْتِناه ما سيأتي أن فكر غاندي بِناءٌ ذو طبقتَين: أُولاهما أُسس دينية عظيمة جدًّا، وفي ثانيتهما العمل الاجتماعي الذي يرفعه على هذه القواعد الخفية، مطبِّقًا إياها على ممكِنات الزمن ورغائب البلاد؛ فهو دينيٌّ فِطرةً، سياسيٌّ بالضرورة. وكانت الصفة السياسية والعملية في مَساعيه تزداد وضوحًا وقوة مع اشتداد دفع الحوادث وموت رؤساء الأمة، اللذَين اضطراه إلى أن يمسِك دفَّة السفينة وسط العاصفة، ولكن لن يزال الشيء الجوهري في البناء هو الناووس. هذا الناووس رحبٌ عميق، شُيِّد ليحمل

[٢٤] أغسطس سنة ١٩٢٠. غاندي هنا يضاد دُعاة «حكم السيف».

[٢٥] «البشرية واحدة، يُوجد فروق وأجناس، ولكن كلما ارتفع جنس كثرت واجباته وعظمت.» عن كتابه «الدين الأخلاقي».

[٢٦] ٥ نوفمبر ١٩١٩.

كاتدرائية غير التي يجب التعجيل في بنائها، هو وحده باقٍ، وما عداه وقتيٌّ لم يُعدَّ إلا لإيواء أعوام النقلة. يهمنا إذًا أن نعرف هذه الكنيسة الأرضية التي يقوم فكر غاندي ومذهبه على آساسها الثابتة، ففيها كان غاندي يختلي كلَّ يوم ليستعيد القوى اللازمة للعمل — فوق.

يؤمن غاندي إيمانًا صادقًا بدين أمَّته الهندوسية، وليس إيمانه إيمانَ عالمٍ متقيِّدٍ بالنصوص والكتب، ولا إيمانَ تقيٍّ ورِع لا ينقد، بل يسلِّم تسليمًا أعمَى بكل منقول: إن عقيدته لفي رقابةٍ مزدوجة من وجدانه ومن عقله.

«لن أجعل من ديني وثنًا، وما كنت لأغضي عن أن أيِّ شرٍّ يُؤتى باسمه الأقدس، أو لأجد عليه عذرًا[٢٧] ... لا رغبة عندي في أن أقود ورائي رجلًا واحدًا إذا كنت عاجزًا عن مخاطَبة عقله، بل إني أذهب حتى إلى رفض ربوبية الشاسترا الأقدمين إذا كان عقلي لا يصدق بها.»[٢٨]

ثم إنه لا يسلم للهندوسية — وهذا أمر جوهري — بأي حصر للحقيقة ولا يتسامح فيه:

«لا أعتقد أن ربوبية الفيدا هي وحدها الحق، أعتقد أن الكتاب المقدَّس والقرآن والزندافستا موحًى بها من عند الله كالفيدا ... ليست الهندوسية دينًا تبشيريًّا، ففيها متَّسع لعبادة كل أنبياء العالم ... إنها تأمر كلًّا منا أن يعبد الله حسب عقيدته (دارما)، فهي إذًا تعيش في سلام مع جميع الأديان.»[٢٩]

وهو لا يتعامى عن الضلالات أو المفاسد التي تسرَّبت إلى الهندوسية على مر العصور، بل يحمل عليها حملات صادقة، ولكن ...

---

[٢٧] ٢٧ أكتوبر ١٩٢٠.

[٢٨] يوليو ١٩٢٠. «لا تجبِرني عقيدتي على التسليم بأن كل الآيات موحًى بها من عند الله. أرفض التقيُّد بأي تفسير مهما كانت منزلته من العلم، إذا رأيته مخالفًا للعقل وللشعور الأدبي» (٦ أكتوبر ١٩٢٠).

[٢٩] أيضًا: «الأديان كلها طرق مختلفة توصل إلى غاية واحدة» عند سواراج. «تقوم كل الأديان على قواعد أخلاقية واحدة، وديني الأخلاقي مؤلَّف من الشرائع التي تربط كل البشر» (الدين الأخلاقي).

«... لا أجد سبيلًا إلى وصف شعوري نحو الهندوسية، كما أني لا أقدر على وصف شعوري نحو امرأتي، إنها تثير فيَّ من العواطف ما لا تثيره امرأةٌ غيرها، لا لأنها سليمة من كل عيب، بل أنا لا أخشى القول إن فيها من العيوب أكثر مما أرى، ولكن ثمة شعورًا برابطة لن تنحل. كذلك أمري مع الهندوسية بكل مَعايبها وقيودها، ليس يستفزني شيء بقدر ما تفعله موسيقى الجيتا والرمايانا، وهما كتابا الهندوسية الوحيدان اللذان أستطيع ادِّعاء معرفتهما ... أعرف المفاسد التي تنجِّس اليومَ المعابدَ الهندية الجليلة، ولكني أحبها برغم هذا كله. من رأيي الإصلاح إلى النهاية، ولكني لا أردُّ واحدة من العقائد الجوهرية في الهندوسية.»[٣٠]

ما هي إذًا الحقائق الجوهرية التي يُسلم بها؟ ذكرها صراحةً في مقالة مشهورة نُشِرت في السادس من أكتوبر سنة ١٩٢١، هي بمثابة أركان الدين في نظره:

(١) أُومِن بالفيدا والأوبانشادا والبورانا وبكل ما هو معروف باسم الكتب الهندوسية، فأنا مؤمن إذًا بالأفتارا وبالإحياءات.

(٢) أُومِن بالفرناشراما دارما؛[٣١] نظام الطوائف أو الطبقات، ولكن بمعناه الفيدي (نسبةً إلى الفيدا من كتب الهندوس المقدَّسة) الصحيح لا بمعناه الحاضر الجافي الخشن الذي تفهمه العامة.

(٣) أُومِن بحماية البقرة بمعنًى أوسعَ جدًّا من مفهوم العامة.

(٤) لا أحرِّم عبادة الأوثان.

أيما أوروبي يقف عند هذا الموضع من مطالَعة هذه العقيدة، فهو يحكم بأن الذهنية التي تبدو منها مباينة لذهنيتنا إلى الدرجة القصوى، وبأنها محصورة مُضيَّق عليها في دائرة من العقائد الدينية والاجتماعية البعيدة عنا زمانًا، القصِيَّة مكانًا، فلا تُوزَن قَطُّ

---

[٣٠] ٦ أكتوبر ١٩٢١.

[٣١] لغةً: «فرنا»: لون، طبقة، طائفة. «أشراما»: المكان الذي يكون فيه التدريب والرياضة. «دارما»: الدين. فالمجتمع عبارة عن نظام طوائف أو طبقات، وهذا هو أساس الهندوسية.

بميزان فهمنا، ومن العبث إذًا أن نمضي في القراءة، ولكن لا، ليستمر، فهو واجدٌ بعضَ بِضعة سطورِ هذه الجملة التي هو لها آلف وإليها أقرب:

«أومِن بالحكمة الهندوسية القائلة: إنه لا يدرك امرؤ حقيقةَ الشاسترا إذا لم يبلغ درجة الكمال في العصمة (أهمسا)، والحقيقة (صاتيا)، وإمرة النفس (براهمة شريا)، ولم يزهد في كل متاع أو غنًى في هذه الدنيا.»

هنا يلتقي كلام الهندوسي بكلام الإنجيل، وكان غاندي على بيِّنة من هذه القرابة، فإن كتابه «الدين الأخلاقي» مختتَم بأحد أقوال المسيح.[٣٢] ولقد سأله قَسٌّ إنكليزي سنة ١٩٢٠ عن الكتب التي أحدثت أبلغَ الأثر في نفسه، فكان أول ما ذكَره منها: العهد الجديد،[٣٣] بل هو يقر أيضًا[٣٤] بأن «الخطبة على الجبل» كشفت له سنة ١٨٩٣ عن المقاومة الانفعالية، فسأله القَسُّ حينئذ والعجب آخذ منه: «ألم تكن تعرفها قبل ذلك من مُطالَعة الكتب الهندوسية؟»

– «كلا، كنت أعرف قبل ذلك البغفاد جيتا وأُعجب به، لكن العهد الجديد هو الذي فتَح ذهني لشأن المقاومة الانفعالية، وكان قلبي يفيض سرورًا وأنا أطالعه، ثم مكَّن البغفاد جيتا ذلك الأثر في نفسي، حتى جعل تولستوي بكتابه «ملكوت الله في أنفسكم» هذا الرأيَ في صورته الثابتة.»[٣٥] ولا يَعزب عن بالنا أن هذا المؤمن الآسيوي مغتذٍ بآراء تولستوي،[٣٦]

---

[٣٢] «اطلبوا ملكوت الله والعدل، تُعطَوا ما بقي، فضلًا.»

[٣٣] ٢٥ فبراير ١٩٢٠.

[٣٤] لجوزف ج. دوك، سنة ١٩٠٨.

[٣٥] قال أيضًا لجوزف ج. دوك: «إن الله تجلى عدة تجليات في القرون الغابرة. يقول كرشنا في الجيتا: إذا وهن شأن الدين وساد الكفر، فأنا أتجلى. لنصرة الخير، وكسر الشر، وتوطيد الدين (دارما)، أنا أبعث دائمًا وأبدًا.»

«إن المسيحية جزء من عقيدتي، والمسيح متجلًّى سام لله، ولكن الله لم يتجلَّ فيه وحده، ولست أراه وحده على عرشٍ فريد.»

[٣٦] في آخر رسالة «هند سواراج» قائمة بستةٍ من تصانيف تولستوي يوصي غاندي بدرسها (لا سيما «ملكوت الله في أنفسكم» و«ما هو الفن؟» و«ما العمل؟»)، ولقد حدَّث غاندي جوزف ج. دوك عن التأثير البليغ الذي كان لتولستوي في نفسه، ثم قال له إنه لم يتبعه في الأفكار السياسية. وإذ سُئل سنة ١٩٢١: ما هي علاقاتك بالكونت تولستوي؟ أجاب في جريدة الهند الفتاة (٢٥ أكتوبر ١٩٢١): «علاقات معجَبٍ به متشيِّع، مَدين له في الحياة بشيء كثير.»

وأنه ترجَم بعض مؤلَّفات رسكن[٣٧] وأفلاطون،[٣٨] وأنه يستشهد بطورو ويُعجَب بمازيني ويقرأ إدوارد كاربنتر، وأن ذهنه مُشرب بالفكرَين الأوروبي والأمريكي، فليس ما يحمل الغربي إذًا على اعتبار نفسه غريبًا عن فكر غاندي إذا تكلَّف مؤنة التقرُّب منه. وإنه لَيُدرِك حينئذٍ المعانيَ البعيدة في بنود القانون الذي أدهَشه نصه، وثَمة على الأخص مادتان يَلوح أنهما تُقيمان حاجزًا منيعًا بين روح أوروبة وروح الهند الديني؛ أعني عبادة البقرة ونظام الطوائف،[٣٩] ولكن لنرَ ما معناهما في نظر غاندي:

حقًّا إنه لا يعتبرهما مادتَين ثانويتَين في مجموعة مذهبه، فحماية البقرة ميزة الهندوسية، ويرى غاندي في هذا المبدأ أجلَّ الأدلة على الترقي الإنساني. لماذا؟ لأن البقرة رمز عن «العالم الأدنى من الإنسان»، العالم الذي يبرم البشر وإياه عهدَ محالفة، ومعناه: «الأخوة بين الإنسان والحيوان»، أو هو كما جاء في عبارة له جميلة: «يحمل الإنسان إلى ما بعد حدود نوعه، ويثبت مماثَلة الإنسان لكل ذي حياة.» أما اختيار البقرة دون غيرها من العجماوات فلأنها في الهند خيرُ رفيقٍ ومنبعُ خيرٍ وبركة، وغاندي يرى في «هذا الحيوان الوديع قصيدة رحمة.» ليست هذه العبادة على شيء من الوثنية، وليس أشد من غاندي على الفتشية الخلو من الشفقة كما نعهدها اليومَ في الهنود الذين يستمسِكون بالظاهر والنصِّ، غافلين عن العمل بروح الرحمة «نحو مخلوقات الله العجماء». فإذا فهمنا هذا — ومَن كان أجدر بفهمه من الفقير الأسيزي؟! — لم يبقَ ما يدعو إلى التعجب من عِظَم الشأن الذي خصَّ غاندي به ذلك المبدأ. وليس بمخطئٍ في قوله إن حماية البقرية بالمعنى الذي يريده «هِبة الهندوسية للعالم»؛ لأنه يزيد على الوصية الإنجيلية: «أحبِب قريبَك حبَّك لنفسك.» قولَه: «كلُّ ذي حياة قريبُك.»[٤٠]

---

[٣٧] يُؤثر من كتُب رسكن: «تاج الزيتون البري» The Crown of wild Olive.

[٣٨] «مديح سقراط ووفاته»، كتاب ترجمه غاندي فكان في جملة الكتب التي منعَت انتشارَها حكومة الهند سنة ١٩١٩.

[٣٩] لا مجالَ للوقوف عند عبادة الأصنام؛ لأن غاندي يقول: «أنا لا أكرِّمها، ولكن هذا جزء من الطبيعة البشرية.» فهو يعتبرها حاجة جديرة بالاحترام ناشئة عن نقص العقل الإنساني الذي يشعر أحيانًا بحاجةٍ إلى تجسيم عقيدته أو تجسيدها كي يحسن العبادة، فليس ثمة إذًا إلا ما نشاهده في جميع الكنائس الكاثوليكية.

[٤٠] راجِع في عبادة البقرة مقالات ١٦ مارس و٨ يونيو و٢٩ يونيو و٤ أغسطس ١٩٢٠، و١٨ مايو و٦ أكتوبر ١٩٢١ في جريدة الهند الفتاة، وفي الطوائف مقالتَي ٨ ديسمبر ١٩٢٠، و٦ أكتوبر ١٩٢١.

من الجائز أن يكون نظام الطوائف أعسر فَهمًا وأبعد عن مَدارك الأوروبيين (أقل ما يكون في أوروبة اليوم؛ إذ الله عليم بما يخبئه المستقبل من تطوُّر لم يبقَ له من الديمقراطية إلا اسمها)؛ لذلك لن أطمع في جعله مقبولًا ببسط التآويل التي جاء بها غاندي، ولا أجد رغبة في ذلك، ولكنها على كلٍّ تدلُّ بجلاء على أن هذه العقيدة ليست ناشئة عن روح الصلف والكِبر أو السُّؤْدد الاجتماعي، بل عن شعور بالواجب المترتِّب على كل طبقة أو طائفة من طوائف الهنود، كلٌّ حسب مَقامة. قال غاندي:

«ثمة ما يميل بي إلى الاعتقاد أن ناموس الوراثة أبدي، وأن كل سعي إلى تبديله يؤدي إلى الاختباط المطلق والفوضى الشاملة، فالفوناشراما ملازمة للطبيعة الإنسانية، ولم تزد الهندوسية على أنها رتَّبتها ونظَّمتها ...»

ولكنه يحصر الطبقات كلها في أربع فقط: البراهمة (طبقة الروحيين وأهل الرأي والعلم)، والقشاترية (طبقة العسكريين ورجال الحكم)، والفيشية (التجار)، والشودرة (العمال وأرباب الصناعات اليدوية)، ولا يسلم فيما بين هذه الطوائف بأدنى نسبة من الرفعة والخفض. كل ما في الأمر أنها قابليات ومواهب ليس إلا. هناك فروض وواجبات، ولا فضل ولا ميزة على الإطلاق.[٤١]

«مما يخالف روح الهندوسية أن يخص امرؤ نفسَه بمقام أعلى، أو أن يجعل آخَر في مرتبة أدنى. خُلق الناس جميعًا لخدمة خليقة الله: البرهمي بعلمه والقشاتري بقوته وحمايته، والفيشي بحذقه التجاري، والشودرة بعمله الجسدي؛ ولا يعني هذا كون البرهمي معفيًّا من كل عمل جسدي، ولا كون الشودرة لا يستطيع اكتساب المعارف كلها، بل يعني أن هذا يجيد الخدمةَ بجسده أكثر، وليس من داعٍ لأن يحسد الآخَرين على وظيفتهم. والبرهمي الذي يدَّعي فضلًا لأنه عالم يَسقط من مرتبته لهذا الادِّعاء وحده، وما هو على شيء من العلم الحقيقي

[٤١] لما جمدت في العصور الخالية الطوائف الأصلية، وتحجَّرت طبقات متعجرفة، رفعت الأوبانشادا أصواتها بإنكار ذلك والنعي على أهله.

... ليس القصد بالفرناشراما إلا اقتصاد العزيمة والعمل الاجتماعي (بحسن توزيعهما)، وسيطرة المرء على نفسه بقوة الإرادة.»

فهي إذًا قائمة على نكران الذات وليس على الأثرة والامتياز. ولا نَنسَ أن الطبيعة في عقيدة التناسخ تعدِّل الأمور؛ إذ تجعل البرهمي في الوجودات المتعاقبة شودرة مثلًا، والشودرة برهميًّا وهكذا.

أما مسألة الباريا فلا علاقة لها بمسألة الطوائف الأربع المختلفة والمتساوية، وسنأتي على وصف الحماسة المضطرمة التي ما زال غاندي يحارب بها هذا الحيف الاجتماعي، وفي ذلك وجه من وجوه دعوته الأبلغ تأثيرًا؛ لأنه يعتقد أن مسألة الباريا خِزيُ الهندوسية، وأنها أنكرُ التحويرات الطارئة على الدِّين الحقيقي، بل إنه لَرجسٌ يُؤلمه ألمًا لا يطاق: «خيرٌ لي أن أُقطع إربًا من أن أنكِر إخواني من الطبقات المدحورة، لا أتمنى أن أُبعث، ولكن إذا قُدِّر لي ذلك، فأقصى مُناي أن يكون بعثي بين الأنجاس، كي أشاطرهم الإهانة وأعمل على خلاصهم.»[٤٢]

ولقد تبنَّى طفلةً من هؤلاء المساكين، فهو يتكلم بحنانٍ عظيم عن هذا العفريت الصغير الساحر البالغ سبعًا من العمر، والذي كان يجلب لداره المطرَ والصحو.

قلت ما يكفي لإظهار ما ضُمَّ عليه ثوب العقيدة الهندوسية من القلب الإنجيلي الكبير، هنا تولستوي أعطف وأرق وأبلغ طمأنينة نفس، بل إذا جرؤت على القول: أقرب إلى المسيحية فِطرةً، وبمعناها العام؛ لأن تولستوي مسيحيٌّ عمدًا أكثر منه فِطرةً.

ليس الشَّبه بين الرجلَين أظهر، ولا تأثير تولستوي أصدق منهما في حكم غاندي على الحضارة الأوروبية حكمَه الشديد.

ما فتئت دعوى المدنية يقيمها بعد روسو ذَوو الأفكار الحرَّة في أوروبة، ولم يكن على آسية في يقظتها إلا أن تقتبس من شكاياتهم وانتقاداتهم، فتؤلِّف منها أضخم سجلٍّ في اتهام المُغيرين عليها. ولم يَفُت غاندي هذا الأمر، فإن في «هند سواراج» قائمة بهذه المؤلَّفات المتَّهِمة، بينها طائفة لا بأس بها مما أَلَّفه الإنكليز، ولكن الكتاب الذي لا يُرد عليه هو الكتاب الذي كتبته المدنية الأوروبية بدم الشعوب الهضيمة السليبة المدنسة باسم المبادئ الكاذبة. وما الحرب الأخيرة، حرب المدنية المزعومة، إلا مجلًى واضح لهذا الكذب

[٤٢] ٢٧ أبريل ١٩٢١.

وهذه الوحشية؛ لأنها كشفت عنهما الستار وأظهرتهما بلا حياء للملأ أجمع. وكان من غفلة أوروبة أن دعت شعوب آسية وأفريقية ليشهدوا عُريها، فرأَوا وحكموا:

> «كشفت الحرب الأخيرة عما في المدنية السائدة اليوم على أوروبة من طبيعة شيطانية.[٤٣] لقد حطَّم الغالبون باسم الفضيلة جميع الأنظمة الأخلاقية التي قامت عليها علاقات الأمم، ولم يروا في كذب أو فرية، من العار ما لا يجوز معه الانتفاع بهما. وراء هذه الجرائم كلها عاملٌ مادي صرف. ليست أوروبة مسيحية؛ إنها تعبد ممون.»[٤٤]

هذه أفكار تقع عليها عشرين مرة في كتابات اليابانيين والهنود منذ خمس سنوات، بل الذين يحترسون من الجهر بها، لتجدنَّ هذا الاعتقاد منقوشًا خلف جِباههم. وليس هذا أيسر النتائج المتلفة التي أعقبها انتصار ١٩١٨ الأشبه بالخذلان، ولكن غاندي لم ينتظر حلول سنة ١٩١٤ ليبصر وجه المدنية الحقيقي، فقد كشفت له عن قِناعها في العشرين عامًا التي قضاها بأفريقية الجنوبية، وأعلن في هند سواراج (١٩٠٨) أن «المدنية الحديثة هي الرذيلة الكبرى».

المدنية في رأي غاندي مدنية اسمًا ليس إلا، هو — هذا التعبير مقتبَس من الهندوسية — «العصر الأسود، عصر الظلمات» لأنه يجعل للحياة غرضًا واحدًا؛ الصلاح المادي، ولا تعنيه مصالح الروح على الإطلاق. إن المدنية تُهيِّم الأوروبيين وتستعبِدهم للمال وتجعلهم عاجزين عن معرفة الطمأنينة، بل عن كل حياة باطنة. هي جحيم الضعفاء والطبقات العاملة، ومنها إتلاف حيوية الشعوب. ستهدم هذه المدنية الشيطانية ذاتها بذاتها. عدو الهند الحقيقي هي، أكثر من الإنكليز الذين ليسوا أشرارًا، كلٌّ بحد ذاته، بل هم مصابون بداء مدنيتهم؛ لذلك يحارب غاندي من مواطنيه أولئك الذين يريدون طرد الإنكليز ليجعلوا الهند دولة «متمدِّنة» على النمط الأوروبي، قائلًا: «إذا تمَّ هذا فقد أبقينا «طبع النمر بلا نمر»، كلا ثم كلا، «إن المجهود العظيم الوحيد الذي يُطلب منَّا هو طرد المدنية الغربية.»

---

[٤٣] هذا لفظ يجري به قلم غاندي كثيرًا: «النجاسة (الاعتقاد بالباريا) من اختراع الشيطان، ١٩ يونيو ١٩٢١.»

[٤٤] ٨ سبتمبر ١٩٢٠.

يحمل غاندي حملةً شديدة على ثلاث طبقات من الناس: القُضاة والأطباء والمعلمين، فأمَّا هؤلاء فالسبب بَيِّن، وهو أنهم أنْسَوا الهنود لغتهم الخاصة وروحهم الخاص، وأنهم يحطون الناشئ من الوجهة القومية، وأنهم فوق ذلك لا يخاطبون إلا العقل، غافلين عن القلب، مهمِلين الخلق. ثم إنهم يُنقِصون من قدْرِ العمل اليدوي، على حين أنه من الجناية الظاهرة تنظيمُ تربية أدبية صِرفة في بلادٍ ثمانون في المائة من أبنائها زرَّاع، والعشرة صنَّاع. ومهنة القاضي مغايرة للأخلاق الفاضلة؛ لأن المحاكم في الهند آلة بيد السلطة البريطانية، ولا شأن لها إلا إذكاء نار الخلف والشقاق بين الهنود، وهي بوجه عام تتعهَّد الجدل والخصومات في كل البلاد. إن القضاء استغلال جِد رابح لغرائز السوء. أمَّا الأطباء فيعترف غاندي بأنه جُذِب إليهم بدأةً، لكنه ما لبث أن علم أن حرفتهم غير شريفة، فالطب لا يعنيه إلا التخفيف من أوجاع المرضى، غير مُبالٍ باجتثاث أصول الأمراض، وهي الرذائل على الأغلب، بل يمكن القول إنه ينمِّيها بهَدْيه ذويها إلى وسائل التلذُّذ والتمتع بها بأقل المخاطر، فهو إذًا عون على إفساد خلق الأمَّة، فضلًا عن كونه يخنث هذا الخلق بوصفات «السحر الأسود»،[٤٥] التي تصرف عن رياضة الجسد والروح على الصبر والبطولة، ويعارض غاندي هذا الطبَّ الغربي الكاذب الذي يزري عليه في مواضع عديدة زرايةً جاوَزت الحد، بالطب الواقي الصحيح الذي خصَّ له أحد مؤلَّفاته الشعبية الموجزة، وهو «دليل الصحة». هذا الكُتَيِّب ثمرة اختبارِ عشرين سنة، تَناوَل فيه الأخلاق والمعالجة على السواء؛ لأن «المرض ليس نتيجة أعمالنا فحسب، بل هو أيضًا نتيجة أفكارنا»، وليس بعسيرٍ وضعُ القواعد للوقاية من العِلَل؛ «لأن أصل الأمراض كلها واحد، هو مخالَفة نواميس الصحة الطبيعية. الجسدُ مقام الله، فيجب أن يظل طاهرًا أبدًا.» وأن في وصايا غاندي وقواعده الطبية (رغم إصراره على نكران علاجات مجرَّبة) شيئًا كثيرًا من أصالة الرأي وحُسن النظر، ولكنَّ ثمة أيضًا تحريجًا أخلاقيًّا بالغًا الغاية.[٤٦]

[٤٥] لا يعزب عن بالنا أن من أعظم شكايات غاندي من طبابة أوروبة كونها تلجأ إلى تشريح الأحياء؛ «أشد جرائم الإنسان سوادًا».

[٤٦] تذكِّرنا صرامة مذهبه، لا سيما في أمر العلاقة الجنسية، بالقديس بولس.

إن قلب المدنية الحديثة (عصرُ الحديد – قلبٌ حديد) الماكينة، هو الوثن العظيم المخوف الذي يجب تحطيمه، وأكبر أماني غاندي أن يتجنَّب النظام الماكيني الحديث في الهند. وهو يؤثر على الهند مستقلة، ولكن وارثةً الماكينة الإنكليزية «عبودة الهند للسوق الإنكليزية»:

> «خيرٌ لنا أن نشتري القماش من مانشستر من أن نقيم معاملَ مانشستر في الهند، فإنه لن يفضِّل الركفلر الهندي أخاه الأمريكي، الماكينة خطيئة فاحشة لأنها تسترقُّ الشعوب ... والمال سُم كالرذيلة الشهوانية.»

ولكن الهنود الذين غلبتهم الأفكار الحديثة يسألون: كيف تصبح الهند إذا خلت من الخطوط الحديدية والترامات والصنائع الكبرى؟ فيُجيبهم غاندي: ألم تكُن الهند من قبلُ؟ «منذ آلاف السنين والهند ثابتة لا تتزعزع، وحدها وسط أمواج الممالك الزائلة، زال كل ما عداها وفازت هي منذ آلاف السنين بإمرة النفس وبعلم السعادة، فليس لها أن تتعلَّم شيئًا في هذا الصدد من الأمم الأخرى. وهي لم ترغب في الماكينة والحواضر الكبرى، فإن المحراث العتيق والمغزل والتربية الهندية القديمة، كل ذلك ضِمنَ لها الحكمة والصلاح. يجب علينا أن نعود إلى البساطة الأولى، لا طفرة — هذا لا ريب فيه — بل رويدًا رويدًا، بأناة وصبر، جاعلًا كلٌّ منا نفسه قدوة ...»[٤٧]

هذا جوهر رأيه، وإنه لَذو خطر، فهو يحتمل نكران الترقي، ويكاد يتعدَّاه إلى نكران العلم الأوروبي.[٤٨] إن هذه العقيدة الممثلة لروح العصور الوسطى معرَّضة إذًا لأن تصطدم بالاندفاع البركاني الذي للفكر الإنساني، فتتمزَّق مزائق. ولكن لعل الحكمة تقضي علينا بألَّا نقول: «الفكر الإنساني»، بل «فكر إنساني»؛ إذ لو جاز التصديق — وأنا من المصدِّقين — بوحدة السمفونيا في الروح الكوني، فلا ينكر أنها مؤلَّفة من أصوات مختلفة، كلٌّ منها يوقع توقيعًا خاصًّا، وكأنما غربنا الفَتِي قد استهواه توقيعه، فنسي أنه لم يؤتَ إدارة هذه

---

[٤٧] هند سواراج.

[٤٨] إذا كان غاندي لا يُعنى بصيانة العلم الأوروبي، فهو يسلم بضرورة الأبحاث العلمية لما تستلزمه من رياضة صارمة. وإنه لَمُعجَب بغيرة رجال العلم الأوروبيين وتفانيهم، ويغلب عليه جعلهم في مقام أرفع من مقام مؤمني الهندوس. هو يحترم العقل ولا ينكر إلا السبيل التي اختارها هذا العقل، ولكن التضادَّ بديهيٌّ برغم هذه التحفظات وسنرى بعدُ كيف يحتجُّ تاغور بحق، على ما عند غاندي من روح القرون الوسطى.

الجوقة منذ الأزل، وأن ناموس ترقِّيه عُرضة للكسوفات وللحركات المتعاكسة وللتكرارات، وأن تاريخ المدنية الإنسانية هو بعبارة أصح تاريخ مدنيات، وأنه إذا شُوهد في كلٍّ منها ترقٍّ (متغير، كاووسي، متكسر، واقف أحيانًا)، فلا يصح الجزم بأنه كان ثمة ترقٍّ لإحدى المدنيات الكبرى على أخواتها.

ولكن لو أعرضنا عن النظر هنا في عقيدة الترقي الأوروبية، واكتفينا باعتبار الحركة الحاضرة مضادةً لأبعد أماني غاندي، فلا يظنن ظانٌّ أن عقيدة غاندي ستنحطم عند تلك الحركة، وإلا كان هذا جهلًا بالروح الشرقي. يقول غوبينو: «إن الآسويين أشدُّ عنادًا منَّا في كل الأمور، فهم ينتظرون قرونًا لدى الضرورة، ولا تهرم فكرتهم بعد هذا السُّبات الطويل، ولا تخسر شيئًا من قوتها.» ما كانت القرون لتُخيف الهندي، إن غاندي مستعِدٌّ لأن يفوز في بحر العام، ولكنه مستعِدٌّ أيضًا لأن يفوز خلال بضعة قرون. هو يرفق بالزمن ولا يعنف، فإذا تمهَّل الزمن رافَقه غاندي في تمهُّله، وإذا وجد الهند غير متأهِّبة لفَهم الإصلاحات المتطرِّفة التي يريد إلزام بلاده إياها، وغير قادرة على ممارستها، عرف كيف يؤلِّف بين مَساعيه وبين الممكنات، وليس مما يدعو إلى العجب سماعُنا هذا العدو اللدود للماكينة يقول سنة ١٩٢١:

«لن أبكي زوال الماكينات، ولكن لا أنوي (في الحاضر) شيئًا ضدها ...»[٤٩]

أو:

«ناموس الحب الكامل (بلا قيد أو استثناء) هو ناموس كياني، ولكني لا أدعو إلى هذا الناموس الأسمى بالتدابير السياسية التي أرى اتخاذها، وإلا كنت حاكمًا على نفسي بالفشل ... ليس معقولًا أن ننتظر من العامة في الوقت الحاضر خضوعًا لهذا الناموس ...[٥٠] ما أنا بصاحب رومبي، وأزعم أني صاحب مثلٍ أعلى عملي.»[٥١]

---

[٤٩] ١٩ يونيو ١٩٢١.

[٥٠] ٩ مارس ١٩٢١.

[٥١] ١١ أغسطس ١٩٢٠.

هذا التعريف صحيح، فهو لا يكلِّف الناس إلا ما في طاقتهم أداؤه، لكنه يسألهم كلَّ ما في طاقتهم، وهذا «الكل» شيء كثير لأن أمره مع أمة كالهنود؛ الأمة الهائلة بعديدها[٥٢] وعمرها، وروحها الذي لا يسبر غوره. لقد تم الاتفاق بين هذه الأمة وبين غاندي لأول تماس حصل، فهما يتفاهمان بغير ما كلام. غاندي يعرف ما ينبغي له أن ينتظر، وهذه الأمة تنتظر ما سيسألها غاندي أن تعمل.

بينهما أولًا هذا الاتفاق الصريح: السواراج أو حكم الهند الذاتي.[٥٣] يقول غاندي:

«أعلم أن غاية الأمة هو السواراج وليس اللاعنف ...»

وبلغ به الحد أن زاد هذه العبارة التي يدهش صدورها منه:

«أُوثِر أن أرى الهند حرةً مستقلة بالعنف على أن أراها مستعبَدة مغلولة إلى عنف المسيطرين.»

ولكنه ما لبث أن صحَّح قوله جاهرًا بأن هذا فرض المستحيل؛ إذ ليس العنف بمنقذ الهند، ولا يمكن أن يُنال السواراج إلا بقوى الروح، السلاح الخاص بالهند، سلاح الحب وقوة الحقيقة؛ الصاتياغرافا.[٥٤] ولقد كانت عظمة غاندي وعبقريته في أنه بدعوته هذه إلى أمته، كشَف لها عن طبيعتها الحقَّة وقُدرتها الخفيَّة.

الصاتياغرافا لفظٌ اخترعه غاندي في أفريقية الجنوبية تمييزًا لمسعاه عن المقاومة الانفعالية، وينبغي أن نجتهد كثيرًا لإظهار هذا الفرق والمفاضَلة؛ لأن الأوروبيين يدلون على حركة غاندي بـ «المقاوَمة الانفعالية» أو بـ «اللامقاوَمة»، وليس أقرب إلى الخطأ من هذا الزعم، فإنه ما في الدنيا رجلٌ أشدُّ كراهةً للانفعال والتسليم من هذا المجاهِد الذي لا يكلُّ ولا يفتر، وهو نفسه من أجلِّ نماذج «المقاوِم البطل». روح الحركة التي أحدَثها هي المقاوَمة

---

[٥٢] خمس سكان المعمورة.

[٥٣] اشتقاقًا: سوا: ذات. راج: حكومة. الحكم الذاتي. اللفظ قديم ككتب الفيدا، لكنه بُعِث من مدفنه وأُدخِل في لغة السياسة بفضل دادابي البارسي معلم غاندي.

[٥٤] اشتقاقًا: صاتيا: مستقيم، رشيد. اغرافا: التدرب، السلوك. ويطلقونها خاصةً على إنكار الحيف والظلم، ويعرفها غاندي (٥ نوفمبر ١٩١٩) بقوله: «الاستمساك بالحقيقة، قوة الحب أو قوة النفس.» ثم في موضع آخر: «انتصار الحقيقة بقوة النفس والحب.»

الفاعلة، بقوة الحب والإيمان والتضحية؛ تلك القوة الملتهبة. فهذه القوة المثلَّثة يعرِب عنها غاندي بكلمة «الصاتياغرافا».

ليس للجبان إذًا أن يأتي فيعوِّذ جبنَه بظلِّ غاندي، غاندي يطرده من جماعته. إذا لم يكن بدٌّ، فالعنيف خيرٌ من الجبان:

> «حيث لا خيارَ إلا بين جبنٍ وعنفٍ، فأنا أدعو إلى العنف ...[٥٥] أنا أربي في الرجل الشجاعةَ المطمئنة إلى أن يموت دون أن يقتل ... ولكن مَن ليست له هذه الشجاعة أُحِب أن يبرع في صنعة القتل واستقبال الموت، فهذا أفضل من عار الفرار من الخطر؛ لأن الفار يجترم عنفًا ذهنيًّا، فهو يفرُّ لأنه لا يشجع على أن يموت وهو يقتل.[٥٦] خيرٌ أن أتعرَّض للعنف ألفَ مرة من أن «يُخصى» شعبٌ بأجمعه.[٥٧] أولى لي فأولى أن أرى الهند تلجأ إلى السلاح في الذَّوْد عن شرَفها، من أن أقف كالجبان، شاهدًا على عارها ...»[٥٨]

ثم يستدرك قائلًا:

> «ولكني أعلم أن اللاعنف أفضل من العنف، وأن العفو أدلُّ على الرجولة من القِصاص. العفو حلية الجندي، ولكن عدم القِصاص لا يكون عفوًا إلا حيث تكون القدرةُ على القِصاص، ولا معنى له إذا بدَر من عاجز ... ولا أعتقد أن الهند عاجِزة، فإنه لا يَقدر مائة ألف إنكليزي على إخافة ثلاثمائة مليون من الناس ... ثم إنه ليست القوة في الأسباب المادية، بل هي في الإرادة التي لا تُقهر. وما كان اللاعنف خضوعًا وانقيادًا للمُسيء، بل إن اللاعنف يضادُّ إرادةَ العاتي

---

[٥٥] ١١ أغسطس ١٩٢٠.

[٥٦] ٢٠ أكتوبر ١٩٢١.

[٥٧] ٤ أغسطس ١٩٢٠.

[٥٨] ١١ أغسطس ١٩٢٠، من القواعد المتبعة في مدرسة «الصاتياغرافا أشرم» التي أسَّسها غاندي عدم الخوف: «وأن تكون النفس في نجوة من مخافة الملوك والأمم والطوائف والعائلات والبشر والضواري والموت.» وهذا هو رابع شرطٍ في المقاوَمة اللاعنيفة كما في هند سواراج (والثلاثة الأُخَر هي: الطهارة، والفقر، والحقيقة).

بجماع قوة النفس. هكذا يَقدر رجل واحد على إعجاز مملكة بأَسْرها حتى يكون عِلَّة سقوطها ...»

ولكن بأي ثمن؟ بألمه، الألم هو الناموس الأعظم ...

«شعار النوع الإنساني ...[٥٩] الشرط الملازم للوجود. الحياة تخرج من الموت. لينبت القمح يجب أن يهلك البذار. ما سما امرؤ إلا وقد مرَّ على نار الألم ... لا مَناص لأحدٍ منه ... وليس الترقِّي إلا في تطهيرك ألَمَك بتحاشيك إيلامَ الغير ... كلما زاد الألم طُهرًا كان الترقِّي أعظم ...[٦٠] اللاعنف رضاءٌ بالعذاب ... أذنتُ لنفسي بأن أقدِّم للهند ناموسَ التضحية القديم، ناموس الألم ... أن «الريشيين» الذين اكتشفوا ناموس اللاعنف وهم في أعظم الشدائد وشر الويلات، كانوا أجلَّ من نيوتن نُبوغًا، ومن ولنغتن بأسًا وبطولة؛ فقد أظهروا بطلان الأسلحة التي عرفوها في عصرهم ... ليست ديانة اللاعنف للقديسين فحسب، بل هي لعامة الناس. ذلك هو ناموس نوعنا، كما أن العنف ناموس العَجماوات. كرامة الإنسان تتطلَّب ناموسًا أسمى؛ قوةَ الفكر والروح. أريد الهند على العمل بهذا الناموس، أريدها على أن تكون شاعرة بسُلطانها. إن لها روحًا لا يموت، ولهذا الروح أن يُعجز كلَّ ما في العالم من قوًى مادية.»[٦١]

هذا لعَمري أسمى ضروب الكبرياء، ولقد شاء حبُّه الفَخُور للهند أن تَطرح الهند العنفَ الشائن، وأن تضحِّي بذاتها. اللاعنف سببُ مجدها وشرَفها، فهي لا تَدَعه إلا سقطت، ولا يطيق غاندي أن يفكِّر بذلك:

«إذا جعلت الهند العنفَ عقيدةً، فليس ما يحملني على العيش في الهند؛ لأنها تحرمني إذًا من كل عاطفة كبر. إن وطنيتي تبعٌ لديني، فأنا متعلِّق بالهند تعلُّقَ الطفل بثَدْي أمه؛ لأني شاعر بأنها تعطيني الغذاءَ الروحي الذي يعوزني، فإذا

[٥٩] ١ مارس ١٩٢٠.
[٦٠] ١٦ يوليو ١٩٢٠.
[٦١] ١١ أغسطس ١٩٢٠.

منعَت عني هذا الغذاء أصبحتُ كاليتيم، وحينئذٍ أَلُوذ بقِفار الحملايا، فآوي فيها نفسي الدامية.»[٦٢]

بيْدَ أنه لا يشكُّ مطلقًا، فقد كان مؤمنًا بالهند؛ إذ عقد العزيمة في فبراير سنة ١٩١٩ على البدء في حملة الصاتياغرافا، وهو السلاح الذي جرَّب فِعْله في حركات ١٩١٨ الزراعية.

لا صبغةَ ثَمَّة لثورةٍ سياسية، فإن غاندي ما فتِئ راعيًا عهدَ الولاء، وسيظل كذلك ما دام عنده بصيصَ أملٍ في حفظ إنكلترة عهْدَها. ولقد استمر حتى يناير سنة ١٩٢٠، وكان هذا مَدْعاة إلى إنحاء غُلاة القومية من الهنود عليه باللائمة المرَّة،[٦٣] ناصرًا مبدأ التعاون مع الإمبراطورية البريطانية، بقوة اليقين الناتج عن خلوص النية، حتى كان بوسعه، في هذه السنة الأولى من معارَضته لحكومة البند، أن يؤكِّد للُّورد هنتر، صادقًا الصدقَ كله، أن الصاتياغرافيِّين أخلصُ الرعايا الدستوريين للحكومة، ولكن عنادَ الحكومة وقِصَر نظرها تعاوَنا في إكراه هادي الهند الروحاني على تمزيق عهد الولاء الذي كان يعتقد أنه مُوثَق به.

وهكذا تبدو الصاتياغرافا بدأةً كأنها معارَضة دستورية أو إنذارٌ للحكومة باحترام. إن الحكومة سنَّت قانونًا غيرَ عادل، فالصاتياغرافيُّون الذين يخضعون عادةً للقوانين يخالفون عن عمدٍ وروِيَّةٍ القانونَ الشائن، فإذا لم يكفِ ذلك لإزالة الحَيْف وإرجاع العدل، فإنهم يحتفظون بحقِّهم في عصيان شرائع أخرى، بل في الكفِّ عن كل مشارَكة وتعامُل مع الحكومة. ولكن ما أبعدَ معنى هذا العصيان عن مفهومه في الغرب! ولله ما تضمَّنَه من لهجة البطولة الدينية!

لما كان محظورًا على الصاتياغرافيِّين في معامَلة الخَصم اتِّباعُ سبيل العنف — إذ يجب التسليم بأن الخَصم صادقٌ أيضًا؛ ما تراه أنت حقًّا يجوز أن يراه هو باطلًا، وليس في

---

[٦٢] ٦ أبريل ١٩٢١.

[٦٣] ردَّ غاندي قبل سجنه ببضعة شهور على الانتقادات المُرَّة التي رمَوا بها ما سمَّوه سياسته «غير المنطقية»، ولقد ذُكِّر حينئذٍ بالمساعَدة التي أدَّاها لإنكلترة في أفريقية الجنوبية وأثناء الحرب العامة، لكنه لم يجحد في ردِّه شيئًا من سيرته الماضية، بل قال إنه كان يعتقد مخلِصًا أنه من أبناء الإمبراطورية، وليس من شأنه محاكمة الحكومة، وأن من السيئ أن يجعل كلٌّ منا نفسَه بمنزلة القاضي إزاء حكومته. وقال إنه أظهر، ما استطاع، ثقةً في فطنة الإنكليز وحُسن نواياهم، إلا أن بَلادة ذهن الحكومة سلخت منه تلك الثقة، فَلتَحمل الحكومة تَبِعة ذلك (١٧ نوفمبر ١٩٢١).

العنف إقناعٌ قَطُّ[٦٤] — فقد وجَب عليهم أن يُقنعوا الخَصم بنور الحب الذي يَسطع من عقيدتهم وتَفانيهم، ومن آلامهم التي رضوها واحتملوها مختارين[٦٥] دعايةً لا تُقاوم: بمثلها استطاع صليبُ المسيح وقطيعُه الضعيف أن يفتحا الإمبراطورية الرومانية.

واستهلَّ المهاتما الحركة بجعل يوم ٦ أبريل ١٩١٩ يوم صلاة وصوم (حرتال)[٦٦] للهند بأسرها، يريد بذلك إظهار الحماسة الدينية التي خُصَّ بها هذا الشعب الذي يقرب ذاته ضحية للخيرَين الأبديَّين: العدل والحرية، وكان هذا أول أعماله.

وكان من شأن هذا الصنيع أنه لامَس قرارةَ وجدان الأمة وأحدَث أثرًا لم يُسمع بمثله، فإن الطبقات كلها اشتركت لأول مرة في إيماءة واحدة؛ لقد وجدَت الهند نفسها.

كادت السكينة يومئذ تكون عامة، وفي دلهي وحدها كانت مُناوَشات لا شأنَ لها،[٦٧] فقصدها غاندي ليرشد الشعب إلى واجباته، لكن الحكومة أوقَفَته في الطريق وأعادَته إلى بمباي، فأثار خبرُ إمساكه فِتنًا في البنجاب أدَّت في أمرتسار إلى حوادثِ نهبٍ وقتل معدودة، ثم بلغ الجنرال «داير» المدينةَ بجيشه، فاحتلَّها في ١١ أبريل واستتب النظام. وكان الثالث عشر من الشهر يومَ عيدٍ كبير عند الهنود، فتوافَدَت الجماهير إلى الاجتماع في موضعٍ يُسمى جاليانوالا باغ، وهي هادئة تضم كثيرًا من النساء والأطفال. وكان الجنرال داير في الليلة الفائتة أصدَر أمرًا بمنع كل اجتماع، ولكن لم يَعلم بهذا المنع أحد؛ فجاء الجنرال إلى جاليانوالا باغ بمترالیوزاته، وبعد وصول الجُند بثلاثين ثانية أُرسِلت النار دونَ إخطار أو تحذير على هذا الجمهور الأعزل، فدام إطلاق المَدافع عشر دقائق استنفدَت فيها الذخيرة. وكان المكان محاطًا بجدران عالية تجعل الفرارَ من المستحيلات، فقُتل من الهنود بين الخمسمائة والستمائة، وجُرح أكثر من هذا العدد، ولم يُعيروا القتلى والجرحى أدنى بال،

---

[٦٤] بل هو شرٌّ وأضر؛ لأنه يحطُّ صاحبه. ويقول غاندي إن من آثار الشدة التي عامَل الحلفاءُ بها ألمانية صيرورةَ الحلفاء مماثلين للألمان، بعد أن كانوا في بداية الحرب يشهرون أعمالهم (٩ يونيو ١٩٢٠).

[٦٥] «مهما صلب طبع أمري، فإن نار الحب تُذيبه، فإن لم يَذُب، فلأن النار ليست بشدة كافية» (٩ مارس ١٩٢٠). وقَّع الصاتياغرافيون جماعاتٍ جماعاتٍ العهدَ على عصيان القوانين الجائرة التي تعيِّنها لجنة الصاتياغرافا، واتِّباع سبيل الحق لا يَحِيدون عنها قيدَ شَعرة، والامتناع عن كل عنف نحو الحياة والأشخاص والملكية.

[٦٦] لفظ هندستاني من أصلٍ إسلامي معناه «الكف عن العمل».

[٦٧] ومع ذلك، فإن دلهي أخطأت في تاريخ ذلك اليوم، فجعلت حرتالها في ٣٠ مارس.

وأُعلِن الحكمُ العسكري في البلاد، وسحَق البنجابَ عهدُ إرهاب. وشُوهِدت طيَّارات تقذف بقنابلها على أناسٍ عُزَّل من السلاح، وسِيق أعيانُ الهنود وكُبَراؤهم إلى المحاكم العسكرية، وجُلِدوا وأُكرِهوا على الزحف على بطونهم، وأُسمِعوا أفحشَ الإهانات ... وكأنما عصفت بالحكَّام الإنكليز عاصفةُ جنون، وكأنما مبدأ اللاعنف الذي نادت به الهند كان أول نتائجه إيغار صدور الأوروبيين القُساة وإخراجهم عن رُشدهم! ما كان غاندي ليَجهل ذلك، فهو لم يَعِد أمتَه بأن يَقودها إلى النصر في سبيلٍ بيضاء، بل وعَدَها سبيلًا دامية، ولم يكن يومُ جاليانوالا باغ إلا يومَ العماد ...

يقول غاندي:

> «يجب أن نكون متأهِّبين لأن نشهد برباطةِ جأشٍ لا قتلَ ألفٍ واحد من رجالٍ ونساءٍ أبرياء، بل عدَّة آلاف، قبل أن تبلغ الهند المرتبةَ التي لا تسمو عليها مرتبةٌ في العالم ... على كل واحد منَّا أن يَعُد الشنقَ حادثًا من حوادث الحياة العادية.»[٦٨]

أفلحَت المراقبة شهورًا معدودة، في إخفاء فظائع البنجاب كي لا تُعرف خارجًا،[٦٩] ولكن ما انتشر خبرها في الهند إلا غمرَت البلادَ من أقصاها إلى أقصاها موجةُ غيظٍ طامية، بل إن إنكلترة نفسها انفعلت لتلك الأنباء، فعُهِد بالتحقيق في القضية إلى لجنةٍ ترأَّسها اللورد هنتر، ومقابل ذلك أَلَّف المؤتمر الوطني الهندي لجنةً لتقوم بتحقيق خاص. وبديهيٌّ أن مصلحة الحكومة (عرَف هذا كلُّ ذوي الفِطنة من الإنكليز) كانت تقضي بأن يُضرب بيدٍ من حديد على جُناة مذبحة أمرتسار. ولم يذهب غاندي بمَطالبه إلى هذا الحد، فكان يَأبى، باعتداله وحلمه العجيب، المطالَبةَ بمقاصة الجنرال داير وسائر الضبَّاط الجانين، مكتفيًا بثَلْبهم وتعييرهم؛ ذلك أنه لا يريد انتقامًا ولا يحمل ضِغْنًا ... «ليس لامرئٍ أن يحقد على مجنون، ولكن يجب أن يُجرد المجنون من وسائل الشر والأذى.» كان يوجِب إذًا عزلَ «داير» لا أكثر، لكن حكومة الهند، قبل ظهور نتيجة التحقيق، كانت أعجلَ إلى سنِّ قانونِ تعويضٍ لحماية الموظفين، ولم تكتفِ باستبقاء الضبَّاط الجُناة، فكافأتهم أيضًا.

---

[٦٨] ٧ أبريل ١٩٢٠.

[٦٩] كذلك أوقف غاندي في ١٨ أبريل ١٩١٩ حركتَه، تهدئةً للهياج، ولم يحاول استغلالَه كما كان يفعل أيُّ داعيةٍ للثورة سِواه.

وبينما كانت الهند مائجةً، إذ دهمها أمرٌ آخَر أعظم خطرًا من الأول؛ لأنه خرقٌ صريح لعهود رسمية كان قطَعها رئيس الحكومة الإنكليزية، فأتى على البقية الباقية من الثقة التي يمكِن أن تكون في حسن نوايا الأوروبيين، وأشعَل نارَ الثورة الكبرى.

إن الحرب الأوروبية رمت مسلمي الهند في مأزق وجداني حَرِج، لقد تنازعهم صِدقُ الولاء للإمبراطورية وإخلاصُهم لرئيسهم الديني، ولم يُقدِموا على الانحياز إلى إنكلترة إلا بعد أخذِ العهد منها على ألَّا تمسَّ سيادةَ السلطان أو الخليفة. وكان رأي جمهور المسلمين أن تبقى للترك ولاياتهم الأوروبية، وأن يحتفظ الخليفةُ برقابة البلاد المقدَّسة، وبالسيادة على بلاد العرب كما يعرفها علماء الإسلام؛ أيْ بأبوابها: سورية وفلسطين والعراق. وقطع لويد جورج ونائب الملِك للهنود عهودًا صريحة بذلك، فلما وضعَت الحربُ أوزارها لم يَبقَ من هذه العهود شيء. ومنذ صيف ١٩١٩ قلق مسلِمو الهند لهذا الصُّلح الفادح الذي أخذ الحُلفاء يعدونه، فتذمَّروا، وكان ذلك فاتحةَ فِتَن «الخلافة».

بدأت الفتنة في ١٧ أكتوبر ١٩١٩ (يوم الخلافة) بتظاهرة سِلمية رائعة، عقبها بعد شهر (٢٤ نوفمبر) مؤتمرُ الخلافة في دلهي، الذي اشتركت فيه الهند كلُّها وترأَّسه غاندي. رأى غاندي بنظره الخاطف أن المسألة الإسلامية خيرُ ذريعة إلى إيجاد الوحدة الهندية. وكان هذا الأمر في غاية الخطورة؛ لأن الإنكليز ما فتِئوا متَّكلين على العداوة الأصلية بين الهندوس والمسلمين، ويتَّهمهم غاندي بأن الشَّطر الأعظم منها هم أوجدوه، أو أنهم على كلٍّ لم يأتوا بحركةٍ لتخفيف تلك العداوة. كان الدينان يستفزُّ كلٌّ منهما الآخر بصورة حيوانية؛ فكان الهندوس إذا مرُّوا أمام الجوامع حيث يجب الصمتُ والسكينة، لا يَغفلون عن رفع عقيرتهم بالغناء، وكان المسلمون يقابلون هذا الصنيع بجرحِ الهندوس في عبادتهم البقرة، فيتبع ذلك من فِتَن ومعارك تُوغِر الصدور وتسعر نار الشحناء. ولم يكن الشعبان يتعاشران، ومن المحرَّمات أن يتناكحوا أو يؤاكل بعضهم بعضًا. كانت حكومة الهند نائمة مطمئنة إلى هذا الانشقاق الأكيد الأبدي، فأيقظها فجأةً صوتُ غاندي في مؤتمر الخلاف داعيًا إلى الاتحاد، وأعلن غاندي بكرمِ نفسٍ غير مصطنع — وهو لذلك أبلغ فعلًا — أن على الهندوس أن يكونوا والمسلمين يدًا واحدة في سبيل القضية الإسلامية:

«هندوسًا كنا أم بارسيين، نصارى أم يهودًا، أيًّا كنَّا، يجب إذا تاقَت نفوسُنا إلى أن نعيش أمة واحدة، أن تكون مصلحةُ الفرد مصلحةَ الجميع، ولا عبرةَ إلا لعدل مَطالبه.»

وكان دم المسلمين قد امتزج بدمِ الهندوس في مذبحة أمرتسار، فيجب الآن أن يُختم صك الحلف بين هؤلاء وأولئك: حلف بلا شروط. كان المسلمون أعظم عناصر الشعب

الهندي شجاعة، فكانوا أولَ مَن قرَّر في مؤتمر الخلافة هذا رفْضَ كل تعاون مع الحكومة إذا لم تُجِب مَطالبهم، فصدَّق غاندي قرارَهم، لكنه ظلَّ محافظًا على روح الاعتدال الذي عُرف عنه، فردَّ اقتراح مقاطَعة البضائع الإنكليزية؛ لأنه كان يرى في هذه المقاطَعة عاطفةَ انتقامٍ ومَظهرَ ضَعفٍ على السواء.

وفي مؤتمر الخلافة الثاني المعقود بأمرتسار في آخِر ديسمبر ١٩١٩، تقرر إيفاد وفد إلى أوروبة، وأُرسِل إلى نائب الملِك إنذارٌ فيما إذا وقَع صُلح مضاد لإرادة الهند، ونشَر المؤتمر الثالث المنعقِد ببمباي في ٢ فبراير ١٩٢٠ بيانًا إسلاميًّا يَثلب فيه السياسةَ الإنكليزية وينذر بالعاصفة.

كان غاندي يرى أن العاصفة آتيةٌ لا ريبَ فيها، ولم يكن لَيرجوها قط، بل إنه بذَل جهدَه لإمساكها.

ويَلوح أن القوم في إنكلترة فطنوا أخيرًا للخطر، فعملوا على منعه بإجابة بعض المَطالب بعد فوات الأوان، وجاء قانون الإصلاح الهندي مَبنيًّا على بيانات مونتاغو-شلمسفورد، يمنح الأمة الهندية سلطاتٍ ومسئوليات في الحكومة المركزية، وفي إدارة المقاطَعات أوسع نطاقًا من ذي قبل. وصادَق عليه الملِك في بيان ٢٤ ديسمبر ١٩١٩، داعيًا الشعب والموظَّفين الهنود إلى إنفاذه، وسائلًا نائبَ الملِك إصدارَ العفو عن المحكومين السياسيين. وكان غاندي، وما زال، ينفعل بمَظاهر الكرم، فأبدى امتنانه، ورأى في هذه التدابير تعهدًا ضِمنيًّا تقطعه إنكلترة على نفسها بأن تَعدل في قضية الهند، فنصَح مواطنيه بقَبُول هذه الإصلاحات. لقد حكم بأنها ناقصة، لكنه رأى أنها قد تكون فاتحة انتصارات مشروعة أوسع نطاقًا، وأنه يجب أن نعتنقها صادقي النية. وبعد مناقَشات عنيفة، فاز رأيه في المؤتمر الوطني الهندي.

بيد أن هذا الأمل الأخير خاب أيضًا، خيبة الآمال الأولى، فلمْ يعبأ نائب الملك بالنداء الذي وُجه إلى حلمه، وفُتحت السجون، لكن لتنفيذ أحكام الإعدام، فهاجت الهند وماجت وأصبح من البديهي أن وعود الإصلاح ستظل برقًا خُلَّبًا.

وفي هذا الحين (١٤ مايو ١٩٢٠) علمت الهند بشروط الصلح الفادحة التي أُكرهت تركيا على قبولها، وجاءت رسالة من نائب الملك يقر فيها بأن هذه الشروط ستكون ولا ريب شديدة على قلوب المسلمين، لكنه يدعوهم إلى الصبر والتسليم.

وأخيرًا في تلك الأيام، نشر البيان الرسمي الذي وضعته لجنة التحقيق عن مذابح أمرتسار وكان قد تأخر نشره، فكملت به سلسلة العوامل على إثارة نفوس الهنود.

وهكذا قُضي الأمر وقُطعت كل العُرى.

قررت لجنة الخلافة المنعقدة ببمباي في ٢٨ مايو ١٩٢٠ اتخاذ خطة اللامعاونة التي اقترحها غاندي، وأقرها بالإجماع المؤتمر الهندوسي الإسلامي المنعقد في الله آباد، في ٣٠ يونيو ١٩٢٠ ممهِلًا نائب الملك شهرًا واحدًا لإجابة مطالب الإنذار.

وكتب غاندي نفسه إلى نائب الملك معلنًا عن خطة اللامعاونة وشارحًا الدواعي التي اضطرته إلى التوسل بها، أما هذه الدواعي التي يذكرها فجديرة بالنظر؛ لأنه يُشهد الملأ، حتى في تلك البرهة الأخيرة، على رغبته الأكيدة في عدم قطع العرى التي تصل بين الهند وإنكلترة، وأمله الوطيد في أن يقودها إلى التوبة بهذا العصيان المشروع، قال: «أصبحت بين أمرَين لا ثالث لهما: إما أن أنفصل عن إنكلترة، وإما إذا كنت لا أزال مسلِّمًا بأفضلية الدستور البريطاني على سائر الدساتير، أن أضطر الحكومة إلى الحكم بالعدل في قضيتنا، فأما وأنا لا أزال مسلِّمًا بأفضلية الدستور البريطاني، فقد نصحت إذًا بالعصيان.»

وكذلك نرى أي وطني جليل أعمت الكبرياء الإمبراطورية البريطانية، فلم تدرِ كيف تستبقيه لنفسها.

الفصل الثاني

في ٢٨ يوليو سنة ١٩٢٠ أنبأ غاندي بني قومه أن اللامعاونة تُعلن في أول أغسطس، وقضى أن يكون ٣١ يوليو «حرتالًا» دينيًّا يستعد فيه الهنود بالصوم والصلوات. هو لا يخشى سخط الحكومة، ولكنه يخشى هياج الشعب؛ لذلك اتخذ أسباب الحيطة كي يسود النظام والسكينة صفوف الهنود: «إن اللامعاونة الشاملة تتطلب تنظيمًا شاملًا. إن الفوضى تنشأ عن الغضب، يجب أن لا يكون للعنف أثر مطلقًا، كل عنف يرجع بالقضية القهقرى، ويبدد الأنفس البريئة على غير طائل، ليُراعَ النظام أولًا!»

وخطة اللامعاونة هذه كان غاندي ولجنة اللامعاونة قد سنَّاها في الشهرَين الماضيَين، فقُرر:

أولًا: طرح الألقاب والرتب الشرفية جميعًا.

ثانيًا: عدم الاكتتاب في قروض الحكومة.

ثالثًا: إضراب المحاكم ورجال القانون، والفصل في الخصومات بالتحكيم الأهلي.

رابعًا: مقاطعة الطلاب والأسر والمدارس الأميرية.

خامسًا: مقاطعة مجالس الإصلاحات الدستورية.

سادسًا: عدم الاشتراك في حفلات الحكومة وفي الوظائف الحكومية جميعًا.

سابعًا: رفض كل منصب مدني أو عسكري.

ثامنًا: الدعوة إلى السوادَشي[1] أعني: بعد القسم السلبي من البرنامج القسم الإنشائي، أو النظام الجديد الذي ينبغي أن تقوم على أساسه الهند الجديدة، وسنفصِّل ذلك فيما بعد.

لم تكن هذه إلا المرحلة الأولى، ويجب التنبيه إلى الحكمة والأناة (الغريبتَين على أفهام ثوريي أوروبة) اللتَين اتصف بهما هذا الرجل الذي يطلق تلك الماكنة الضخمة؛ الثورة الهندية، ولكنه يمسكها من البداية، على الفُرضة الأولى. لسنا هنا إزاء «عصيان مدني»، فهذا قد عرفه غاندي ودرسه في تصانيف «طورو» الذي يستشهد به الزعيم الهندي في مقالاته، وهو يُعنى بتمييزه عن اللامعاونة، العناية كلها. ليس العصيان المدني رفض الطاعة فحسب، بل هو كذلك خرقٌ للقوانين: «إنه تجاوزٌ لا يتسنى إتيانه والنجاح فيه إلا من الخاصة، على حين أن اللامعاونة قد تكون، بل يجب أن تكون عمل السواد الأعظم.» يريد غاندي إعداد الشعب الهندي للعصيان، تدريجًا لا طفرة، علمًا منه بأن الشعب غير تام الأهبة، وليس من الحكمة إلقاء حبله على غاربه، قبل التيقن من أنه اكتسب إمرة النفس؛ لذلك لم يكن في هذا البرنامج الأول للامعاونة، ذكرٌ لرفض الضرائب؛ إن غاندي ينتظر الساعة.

وفي أول أغسطس ١٩٢٠ استهل الحركة برسالة مشهورة إلى نائب الملك يعيد بها أوسمته ورتبه الشرفية قائلًا: «لست برادٍّ، إلا أَسِفًا، الوسام الذهبي «قيصري هند» الذي نلته جزاء صنيع إنساني في أفريقية الجنوبية، ووسام الزولو الحربي الذي نلته جزاء خدماتي ضابطًا لفرقة نقالة الجرحى المؤلفة من متطوعة الهنود سنة ١٩١٦، ووسام الحرب البويرية الذي نلته جزاء خدماتي معاونًا لقيِّم فرقة نقالة الجرحى الهندية سنة ١٨٩٩–١٩٠٠.» وبعد التذكير بحوادث البنجاب وبالحوادث التي نشأت عنها حركة الخلافة يقول: «ولكن لا يسعني أن أحفظ في صدري عاطفة حب واحترام لحكومة موصومة بهذه الرذائل والمظالم ... يجب أن نقودها إلى التوبة ... لذلك أوصيت باللامعاونة التي ننفصل بها عن الحكومة، ونضطرها من غير عنف.» ويعرب غاندي عن أمله في أن يرفع نائب الملك عن الهند ظُلامتها باستشارة زعماء الأمة المعهودين.

[1] لغة: سوا: ذات، دَشي: وطن، واصطلاحًا: الاستقلال الوطني، ويستعمل دعاة اللامعاونة هذا اللفظ خاصة بمعنى الاستقلال الاقتصادي على الأغلب، ولكن سنرى بعدُ كيف استخرج صحابة غاندي ومريدوه من هذه الكلمة الجامعة «إنجيلًا اجتماعيًّا».

واقتدى الناس بغاندي دون تردد، فاستقال مئات من القضاة، وغادر الكليات آلاف من الطلاب؛ هُجرت المحاكم، وفرغت المدارس، ثم صدَّق مؤتمر «جميع الهند» المنعقد في أول سبتمبر قرارات غاندي بأغلبية عظيمة، وتنقل غاندي وصديقه مولانا شوكت علي في أنحاء القطر الهندي بين هتاف الأَهْلين.

لم يظهر غاندي أَملكَ لزمام الملايين من الخلق وأعظم سؤددًا منه في هذه السنة الأولى من جهاده. كان عليه أن يعقل العنف الذي يريد أن يثب، وكان أكثر ما يكره عنف الغوغاء، ولا يجد من الكلام القاسي ما يكفي في ذم المبقراطية أو حكم الرعاع الذي يعتقد أنه شر الأخطار على الهند. هو يكره الحرب، ولكنه يؤثرها على انطلاق «وحشية الغوغاء» من قيدها: «إذا قُدر للهند أن تتذرع بالعنف، فليكن العنف المنظم، أي الحرب، أما الرعاع فلا، بحال من الأحوال!»[٢] وكان ينفر حتى من التظاهرات البهيجة اللجبة، ولكن غير المنظمة، التي لا يعلم أحدٌ هل تخرج منها الفتنة وأفعال لا اسم لها: «يجب أن نخرج النظام من هذه الفوضى. يجب أن نستبدل بالغوغاء شريعة الأمة.» إن هذا الصوفي الثاقب النظر (الذي لا ينحط روحه العملي الصحيح عما اتصف به من كبار متصوفينا الأوروبيين الذين سيطروا على النفوس وأسسوا أنظمة الأديرة الكبرى) قد سن قواعد دقيقة لحصر التظاهرات الغامة في أقنية معينة كي لا يطمو سيلها، قال: خطؤنا الفاحش هو أننا أهملنا الموسيقى، إن الموسيقى تعني الإيقاع والنظام، بيد أنها — يا للأسف — ظلت في الهند محصورة بين نفر قليل، فلم تعمَّ، في زمن، طبقات الأمة … ينبغي أن نعهد إلى جوقات أن تنشد الأناشيد الوطنية. ليحضر كبار الموسيقيين كل مؤتمر يُعقد، وليعلمونا موسيقى الجماهير، فليس أهون من تدريب العامة الذين لا إرادة لهم ثابتة …»

ويلي ذلك جملة أوامر: «(١) لا يُقبل في التظاهرات الكبرى متطوعة جدد غير مجربين، يُجعل في المقدمة أكثرهم تجربة. (٢) يُعطى كل متطوع كُتيبًا جامعًا كل التعليمات. (٣) يُتفق على صفرات التنادي بين المتطوعة. (٤) يُطلب من الجمهور أن يطيع المتطوعة دون جدال. (٥) تُعيَّن الصرخات الوطنية، ومتى يجب أن يُهتف بها ولا يُغضى عن أدنى خرق للقاعدة. (٦) يُحمل الجماهير على الوقوف في جانبي الطريق كي لا يمنعوا سير العجلات، ويُحظر عليهم دخول المحطات، ولا يُؤذن لهم باستصحاب الأولاد الصغار إلى أمكنة التجهمر وهلم جرًّا.»

[٢] ٨ سبتمبر ١٩٢٠.

وبكلمة موجزة إن غاندي ينصب نفسه مدير جوقة موسيقية «أوركسترة» في هذا الأوقيانوس البشري.

«إن أشق عمل على الأمة هو تنظيم تظاهراتها.»

لا تعمد الجماعات إلى العنف إلا في نوبات متقطعة، بل هي لا تعلم ماذا تريد، فتسلم نفسها لاندفاعات مفاجئة، ووثبات متعاكسة، بيد أن نفرًا من صفوة الهنود يريدون العنف عامدين، فهم لا يفهمون فكر غاندي ولا أثره السياسي بنوع خاص. ولقد تلقى غاندي رسائل غُفلًا يسألونه فيها أن لا يعارض في استعمال العنف والشدة، أو يظهرون دون حياء — وهذه شر الإهانات — ثقة في أن أقواله ليست إلا ستارًا يخدع به العدو، فهم يلحون عليه بأن يومئ إيماءة القتال، لكن غاندي أجاب بقوة، وجادل جدالًا عنيفًا، ورد بمقالات حسنة جدًّا على دعاة «مذهب السيف»، هو ينكر أن الكتب الهندوسية أو القرآن تأمر بالعنف؛ لأن العنف ليس بدستور دين من الأديان. إن المسيح أمير المقاومة الانفعالية. إن البغفادجيتا لا تدعو إلى العنف، بل إلى إنجاز الواجب، ولو كان في ذلك الهلاك.[٣] «لم يُؤتَ المرء قدرة على أن يخلق، فليس له إذًا حق بأن يُعدم.» يجب أن نحب حتى أولئك الذين يسيئون عملًا، ولا يعني هذا وجوب إباحة الشر. إن غاندي قد يسهر على الجنرال داير إذا مسه مرض، ولكن «إن عاش ابني عيشة خزي، فإن حبي يقضي عليَّ بأن أحرمه عضدي، ولو كان في ذلك هلاكه.» لا يحق لنا أن نقهر الشرير بالقوة، ولكن يجب علينا أن نصده بالافتراق عنه مهما كلف الأمر، فإذا تاب العدو كان فرضًا علينا أن نفتح له ذراعَينا.[٤]

وبينما كان غاندي آخذًا في زجر دعاة العنف، كان في الوقت ذاته يحث المترددين، ويطمن نفوس المتراجعين أمام العمل المباشر: «لم يتم شيء على وجه الأرض دون عمل مباشر، إني طرحت لفظَي «المقاومة الانفعالية» جانبًا لعدم كفايتهما ... إن العمل المباشر وحده هو الذي هدى الجنرال سمطس في أفريقية الجنوبية سواء السبيل، ما المزيج الأمثل الذي قدر المسيح وبوذا على تحقيقه؟ مزيج القوة والحلم، لقد أشعل بوذا حربًا في معسكر عدوه وجعل الكهنوت المتغطرس يسجد أمامه، لقد طرد المسيح الباعة من الهيكل وجلد

[٣] هذا، على الأقل، تأويل غاندي، ولكن هل يجرؤ أوروبي على أن يزعم أن في البغفادجيتا رضا بالعنف وطمأنينة إليه، سواء في حالة إتيانه أم في حالة الصبر عليه؟

[٤] ٢٥ أغسطس ١٩٢٠.

المنافقين والأدعياء، ذلك هو العمل المباشر بأشد مظاهره، ولكن وراء أفعالهما في الوقت ذاته حلمًا لا ينفد.»[٥]

وخاطب غاندي أيضًا قلوب الإنكليز وعقولهم،[٦] وهو يدعوهم «أصدقاءه الأعزة» ويذكرهم بأنه كان صاحبًا أمينًا مدة ثلاثين عامًا، ويسألهم أن يقضوا بالعدل على خيانة حكومتهم وغدرها: «إن غدرها قد حطم ثقتي فيها، ولكني ما زلت واثقًا في مروءة الإنكليز ... إن الهند لا تستطيع أن تقاومكم اليوم إلا بالشجاعة المعنوية، فهي باللامعاونة تضحي نفسها ... أريد أن أملك قلوبكم بآلامي ...»

إن حملته التي استمرت أربعة شهور أو خمسة لم يكن غايتها شل الحكومة الإنكليزية بسياسة اللامعاونة فحسب، بل إنشاء هند جديدة قادرة على كفاية نفسها وعلى استحداث حياة مستقلة مادةً ومعنًى. كان البند الأول ضمان الاستقلال الاقتصادي لها، وهو ما يدعوه غاندي بالسوادَشي (بل إن للسوادَشي معاني مختلفة، لكن هذا أقربها وتغلب عليه الصفة العملية).

وبديهي إذًا أنه يجب على الهند أن تعرف الحرمان من كثير من الطيبات المادية، وأن توطن ذاتها دون شكوى على كثير من أنواع الضيق وشظف العيش، لكنها رياضة نافعة وعلاج واجب، فيهما لصحة الجنس وللشريعة الأخلاقية على السواء، نصيب من الفائدة. ينبغي أولًا أن تُجتث من الهند «بلية المسكر» وأن تُؤلف جمعيات لمقاومته، وأن تُقاطع الخمور الأوروبية، وأن يُحمل الباعة على طرح الرُّخَص ببيعها.[٧] سمعت الهند نداء المهاتما، فطمت على البلاد موجة كراهةٍ للمسكر، حتى اضطر غاندي لأن يحول بين العامة وبين ما همُّوا به من إقفال المخازن جبرًا وتقويض بنيانها؛ لأنه «لا يجوز جعل الناس بررةً أطهارًا، عنوة وجبرًا».

ولكن إذا كان من السهل إنقاذ الهند من وباء المسكر، فإنه يصعب جدًّا ضمان وسائل الحياة لها. من أين غذاؤها، ومن أين لباسها، إذا طرحت المصنوعات الأوروبية جانبًا؟ إن

---

[٥] ١٢ مايو ١٩٢٠.

[٦] «إلى إنكليز الهند جميعًا»، ٢٧ أكتوبر ١٩٢٠.

[٧] ٢٨ أبريل ١٩٢٠ و٨ يونيو و١ سبتمبر ١٩٢١، في «خطاب إلى البارسيين» وهم من كبار التجار، يستحلفهم غاندي أن يقفلوا مخازن المسكرات (٢٣ مارس ١٩٢١)، وفي «خطاب إلى المعتدلين» يسألهم، وإن لم يكونوا متفقين وإياه على سائر مواد البرنامج، أن يعضدوا جهوده في هذه السبيل، وهو في الوقت نفسه يناوئ تجارة المخدرات بأنواعها ومحاشش الأفيون.

«وصفة» غاندي لعلاج هذا الداء غاية في البساطة، تتجلى فيها نزعات فكره الممثل للقرون الوسطى: يريد أن ترجع الأسر الهندية جميعًا إلى صناعة المغزل البيتية القديمة (الشرقا).

لقد سخروا من هذا الحل الفطري للمشكلة الاجتماعية.[٨] ولكن ينبغي أولًا أن نعرف أحوال الهند الخاصة، وأن ندرك المعنى الصحيح الذي يعنيه غاندي بالشرقا، فهو لم يزعم قط أن الغزل وسيلة كافية لحياة الناس، اللهم إلا للفقراء المدقعين، بل إنها صناعة ظهيرة للزراعة حينما تكون الزراعة واقفة، وليست هذه المشكلة من قبيل النظريات، بل هي مُمضَّة موجعة يجب التعجيل في حلها: إن ثمانين في المائة من سكان الهند فلاحون لا عمل لهم خلال أربعة أشهر من السنة، وعُشر الأهلين جياع على الأغلب، بينما الطبقة الوسطى لا تجد كفايتها من الغذاء، وإنكلترة لم تتخذ سببًا إلى معالجة هذه الحالة، بل زادتها سوءًا، فإن الشركات الإنكليزية قضت على الصناعات الأهلية قضاءً مبرمًا، وامتصت موارد الثروة الهندية جميعًا، وهي تسلب الهنود ستين مليون روبية كل عام. إن الهند التي تنتج كل سنة كفايتها من القطن، تصدره في ملايين البالات إلى اليابان واللانكشير؛ كي تستورده بعد حين نسيجًا مصنوعًا، يجب عليها بالبداهة أن تعرف كيف تستغني عن خدمات الأجانب الغابنة، وأن تبادر إلى تنظيم مصانعها الأهلية، وأن لا تتوانى عن إيجاد عمل ومعاش لكل هندي، ولا وسيلة أقرب تناولًا وأحسن توفيرًا من صناعة الكوخ، الصناعة الهندية القديمة، نعني الغزل والنسج، ليس القصد بذلك أن يُصرف الفلاحون العاملون إلى هذه الصناعة، بل أولًا المبطلون الذين لا شغل لهم، وثانيًا النساء والأولاد، وبالنهاية كل الهنود في ساعات فراغهم. وعلى هذا قضى غاندي: (١) بأن يُقاطَع النسيج الأجنبي. (٢) بأن يرجع الهنود إلى صناعة الغزل وينشروا تعليمها وهي غاية في السهولة. (٣) بأن يأخذوا على أنفسهم عهدًا أن لا يلبسوا من الأقمشة إلا ما كان مغزولًا ومنسوجًا على تلك الكيفية. ووقف جماع نفسه على هذه الدعوة بحمية لا تخمد، وشاء أن يصبح الغزل فريضة على الهند بأسرها،[٩] وأن يُعلم في المدارس وأن يؤدي فقراء الطلاب ثمن دراستهم بساعات على المغزل، وأن يخصه كل هندي وهندية بساعة واحدة كل يوم لعمل الخير. ولقد رأينا غاندي يهتم بدقائق الأمور، ويأتي

[٨] عرف غاندي أن الناس سيضحكون منه، لكنه يقول: هل أخلت الإبرة مكانها لماكنة الخياطة، واليد للآلة الكاتبة؟ إن المغزل لم يخسر فائدته الأولى، وهو اليوم من الضرورات الوطنية، بل هو المورد الوحيد الميسور لملايين من خِماص البطون (٢١ يوليو ١٩٢٠).

[٩] ٢ فبراير ١٩٢١.

بتعاليم فنية في موضوع القطن والغزل وأعمال النسج المختلفة، ويقدم الإرشادات العملية للحاكة والشارين وأرباب الأسر والطلاب، ويبرهن بالأرقام أن في وسع كل امرئ أن يفتح برأس مال زهيد حانوت «سوادشي» (لبيع محاصيل العمل الهندي) وأن يربح عشرة في المائة. وهو من أبلغ الشعراء حينما يشيد بذكر موسيقى المغزل[١٠] — أقدم موسيقى هندية — التي كان يستطيب نغماتها «كبير» الشاعر الحائك، و«أوران زاب» الإمبراطور العظيم الذي كانت قلنسوته صنْع يديه … وهكذا وفق غاندي إلى إذكاء نار الحماسة في صدور القوم، فعكفت بنات الأسر الكريمة في بمباي على المغزل، وأخذت الهندوسيات والمسلمات على أنفسهن عهدًا أن يلبسن إلا أنسجة وطنية، وعم زي «الخضار» أو «الخادي» الذي أقر رابندرانات تاغور نفسه بجودته، وراجت سوقه، حتى إنه أُرسل من بلوشستان وعدن في طلبه.

ولكن الحماسة جاوزت الحد قليلًا في مقاطعة النسائج الأجنبية، حتى إن نفس غاندي المعروف بالرشد والحكمة خرج من اعتداله فأمر بإحراقها على أنها رمز العبودة، وفي أغسطس ١٩٢١ أُقيمت ببمباي في ساحة الإمارة — كما في زمن سافونارولا — محارق عظيمة لالتهام الأقمشة النفيسة مما تقتنيه الأسر الكبيرة، والأهلون حولها في فرح لَجَب، فكتب س. ف. أندريوس صديق تاغور ومن كرام إنكليز الهند، كتابًا إلى غاندي وكان به معجبًا، يعرب عن أسفه لإحراق تلك الأقمشة؛ إذ الأفضل أن يتصدق بها على الفقراء، ويلوم على إيقاظ غرائز السوء في العامة، ويسفه هذا التعصب القومي الذي هو أحد مظاهر العنف، قائلًا إنه لا يطيق أن يجعل قومٌ الهدم دينًا؛ لأن إتلاف ثمر العمل الإنساني جريمة. وكان أندريوس قد اعتنق مبادئ غاندي الإصلاحية ولبس «الخضار» لكنه يتردد الآن في لبسه: إن مشهد تلك المحارق جرح إيمانه بالمهاتما. فنشر غاندي رسالة أندريوس وأجاب عليها برفق، منفعلًا لبث هذه النفس القلقة الحزينة، وأعلن أنه غير نادم، وأنه لا يحمل ضِغْنًا على أمة من الأمم، وأنه لا يطلب إتلاف كل متاع أجنبي، بل الأمتعة التي ظهر ضررها. إن المصانع الإنكليزية خربت ملايين من الهنود، حتى إن كثيرًا منهم انحطوا إلى دركات «الباريا» والجنود المرتزقة، وأصبحت نساؤهم عواهر، فلا يرتدي امرؤ هذه الأقمشة الجانية إلا كان آثمًا. إن الهند محمولة ببواعث جمة على بغض مستغليها من الإنكليز، لكن غاندي يحوِّل غيظها عن الأشخاص إلى الأشياء، وليس الإنكليز الذين باعوا هذه الأقمشة

[١٠] ٢١ يوليو ١٩٢٠.

وحدهم بمذنبين، فإن لهم شركاء هم الهنود الذين اشتروها، وإذًا نحن لا نحرق عن حقد وضغينة، بل ندامة واستغفارًا. تلك عملية جراحية واجبة، كذلك لا يجمل بنا أن نهب الفقراء هذه الألبسة النجسة، فإن لهؤلاء أيضًا كرامة.

ليس بكافٍ إطلاق الحياة المادية من رق الأجنبي، فيجب أن نطلق الروح أيضًا؛ لهذا شاء غاندي أن تطرح أمته نِير الثقافة الأوروبية عن كاهلها، وكان من أجلِّ جهوده وضعه الأسس لتربية هندية حقة.

مما أبقى عليه الزمن في الهند بضع مدارس وجامعات لا تزال وهي في وصاية الإنكليز، حافظة جذوات من الثقافة الآسيوية العتيقة: «عليكره» الجامعة الإسلامية الهندية مركز الثقافة الإسلامية في الهند منذ خمس وأربعين سنة، وكلية «خلصا» مركز الثقافة السيخية، وللهندوس جامعة بنارس. لكن هذه المعاهد العلمية المتأخرة من بعض الوجوه كانت تابعة للحكومة التي تمدها بالمال، وكان غاندي يود لو يهدمها، فيعيض الهند عنها بمصابيح أزهى نورًا، وقد افتتح في نوفمبر ١٩٢٠ جامعة غوجرات الوطنية في أحمد آباد وهي مشيدة على أسس الوحدة الهندية، ركناها الدينيان هما «دارما» الهندوس و«إسلام» المحمديَّين، وهي تعمل على حفظ اللغات الهندية لتكون ينابيع الحياة القومية والنهضة الوطنية، ويرى غاندي ورأيه الصواب،[١١] ولأقواله فائدة لنا أيضًا: «إن دراسة منظمة للثقافات الآسيوية ليست بأقل وجوبًا، في اكتساب التربية الكاملة، من دراسة علوم الغرب، ينبغي أن نبحث عما في السنسكريتية والعربية والفارسية والبالية والماجادية من كنوز ثمينة؛ لنظفر بأسرار السؤدد الوطني.» ولا يعني هذا إعادة ما قِيل أو عُمل في الأزمنة الغابرة، بل إنه يجب أن نبني ثقافة جديدة على ثقافات الماضي التي نمت وأَثْرت باختبارات العصور، وتكون هذه الثقافة «مركَّبًا» من مختلف الحضارات التي فعلت في الهند وانفعلت بروح الإقليم، ولكن لن يُصنع هذا «المركَّب» على النمط الأمريكي؛ لأن ثقافة مسيطرة في أمريكة استغرقت كل ما عداها وقضت عليه، فلكل ثقافة حقها ومكانتها. «إن القصد هو التأليف والوفاق لا اصطناع وحدةٍ عنوةً وجبرًا.» فإذًا على الطلاب جميعًا أن يعرفوا ديانات الهند جميعًا: الهندوس يألفون القرآن كما أن المسلمين يألفون الشاسترا، ولا تحرِّم الجامعة الوطنية إلا روح التحريم، فهي لا تسلم بوجود «أنجاس» في الجنس البشري كله، واللغة

[١١] ١٧ نوفمبر ١٩٢٠.

الهندوسية إجبارية؛ لأنها اللغة القومية الحقة ممزوجةً بالسنسكريتية والهندية والأردوية المستعجمة.[١٢]

يتلقى المتأدبون تعليمًا صناعيًّا كما يتلقى غير المتأدبين تعليمًا أدبيًّا؛ كي يقل ما بين الطبقات الاجتماعية من الفروق. أما الروح الاستقلالي فلن يُصان بالدراسة وحدها، بل كذلك بتربية مبنية على المواهب والميول. يريد غاندي — على نقيض التربية الأوروبية التي تبخس العمل اليدوي حقه، موفرة عنايتها على إنماء الدماغ — إدخال العمل اليدوي في المدرسة ابتداءً بصنوف الأطفال. من الحسن أن يؤدي الولد ثمن دراسته غزلًا؛ ليتعوَّد منذ نعومة أظفاره على الحياة الاستقلالية بكسب معاشه، أما تربية القلب التي تهملها أوروبة الإهمال كله، فيجب استحداثها أصلًا، وقبل أن نوجد طلابًا ينبغي أن نوجد مربين.

تلك هي الغاية من إنشاء معاهد المعلمين العليا التي يفكر غاندي — على ما يظهر — في جعلها القواعد الراسخة التي يقوم عليها صرح التربية الجديدة. والأصح أن لا نسمي تلك المعاهد مدارس، فهي أديرة حقيقية تتجمع فيها أنوار الهند المقدسة لتُنشر فيما بعد، على مثال الأديرة الكبرى التي يؤسسها في الغرب أتباع القديس بنوا، رواد الأنفس والأرضين.

وفي أيدينا الأنظمة التي سنها غاندي لمعهد «الصاتياغرا أشرم» في أحمد آباد، وهذا المعهد أحب أبنائه إليه، وهي أنظمة تتعلق بالمدرسين بأشد من علاقتها بالطلاب، وتربطهم بمثل عهود الأديرة، لكن عهود الأديرة، على مر الزمان، لا يبقى لها إلا مزية نظام سلبي، لكنها في «الصاتياغرا أشرم» خفاقة أبدًا بروح التضحية والمحبة الخالصة الذي يملأ صدور القديسين والأولياء. يُطلب من المديرين العمل بالقواعد الآتية:

(١) عهد الحقيقة: ليس بكافٍ أن لا تكذب (لا ينبغي أن تتذرع بكذب قط ولو كان في مصلحة الوطن) فإن الحقيقة قد تضطرك أيضًا إلى معارضة أبوَيك وذويك الأكبر منك سنًّا.

(٢) عهد «الأهمسا» (لا تقتل): ليس بكافٍ أن لا تزهق روح مخلوق من المخلوقات، بل يجب أيضًا أن لا تجرح حتى أولئك الذين تعتقد أنهم ظالمون. يجب أن لا تأخذك

[١٢] ليس محظورًا تدريس الإنكليزية أو أية لغة أوروبية أخرى، ولكنها لا تُدرس إلا في الصنوف العالية، أما اللغات الهندية فهي على الضد موضع العناية في كل درجات الدراسة، ويحلم غاندي بحالة علوية قد يبلغها هذا الوجود، تكون فيها تلك الفروق جميعًا باقية في الوحدة، ولكن ليس بصفتها أجزاءً، بل «كالأوجه العديدة لجوهرة واحدة» يوليو ١٩٢٠.

سَورة الغضب عليهم، بل يجب أن تحبهم. ناوئ الاستبداد، ولكن لا تسئ إلى المستبد، اغلبه بالمحبة، اعصه ولو كان في عصيانه الموت.

(٣) عهد العزوبة الذي بدونه يتعذر العمل بالقاعدتَين الأولى والثانية: ليس بكافٍ أن تجتنب الفسق، بل يجب أن تكون مسيطرًا على شهواتك الحيوانية دائمًا، لا عملًا فحسب، بل فكرًا ونيةً أيضًا، فإذا كنت متزوجًا وجب عليك أن تعتبر امرأتك صديقًا مدى العمر وأن تكون لك بها علاقات طُهرٍ تام.

(٤) رقابة الفم: يجب أن تنظم طعمتك وأن تطهرها. يجب أن تعفَّ عن الأغذية غير الضرورية شيئًا فشيئًا.

(٥) لا تسرق: لا يُقصد بهذا ما هو ملك لغيرك، فإن «من السرقة أيضًا أن تستعمل من الأشياء ما لا تحتاج إليه فعلًا». إن الطبيعة تخرج لنا كل يوم ما يكفي حاجاتنا اليومية، لا ما يزيد عنها.

(٦) لا تقتنِ متاعًا: ليس بكافٍ أن لا تقتني شيئًا، بل يجب أن لا تحفظ لنفسك إلا ما كان ضروريًّا لحاجاتك اليومية. ينبغي أن نطرح دائمًا ما يزيد، وأن نجعل حياتنا غاية في البساطة.

ثم يدعم غاندي تلك العهود الأساسية بهاتَين القاعدتَين:

(١) السوادشي: لا تستعمل الأمتعة التي قد يكون فيها سبيل إلى الغش، وينشأ عن هذه الوصية تحريم الأمتعة المصنوعة في البلاد الأجنبية؛ لأنها ثمرة استغلال البؤس وآلام الشعب العامل في أوروبة، فالسلع الأجنبية حرام إذًا على متَّبع الأهمسا، ومن هنا ضرورة الثياب المصنوعة في الهند نفسها.

(٢) عدم الخوف: لأن الذي يخاف لا يقدر على العمل بالوصايا الآنفة. ينبغي أن تكون بنجوة من مخافة الملوك والأمم والعائلة والبشر والضواري والموت. إن الذي لا يخاف يحمي نفسه «بقوة الحق» أو «بقوة النفس».

وبعد أن أنجز غاندي بناء الأخلاق على هذا الأساس المكين تكلم بإيجاز عن الوصايا الأخرى المتعلقة بالتربية، وأرعاها للنظر هاتان الوصيتان: يجب أن يكون المعلمون قدوة بالعمل الجسدي (سيما زراعة الأرض) ويجب أن يتعلَّموا أهم اللغات الهندية.

أما الأولاد فإذا دخلوا الأشرم — يُقبلون منذ الرابعة من عمرهم — فقد أصبحوا مقيدين حتى يخرجوا منه (تستغرق درجات الدراسة نحو عشرة أعوام)، يُفصلون عن عائلاتهم

ولا يكون لوالديهم سلطان عليهم، لا يزور الطلاب آباءهم. ثيابهم بسيطة وطعامهم بسيط، نباتيٌّ صرف، ليس من أيام عطلة بالمعنى المعروف، ولكنهم يُعطون يومًا ونصف يوم كل أسبوع لقضاء أعمالهم الخاصة، وثلاثة أشهر كل سنة للقيام برحلات في أنحاء الهند مشيًا على الأقدام. الهندية ولهجة درافيدية واحدة هما اللغتان الإجباريتان لجميع الطلاب. عليهم أيضًا أن يتعلموا الإنكليزية بصفتها لغة ثانوية، وحروف خمس لغات هندية (الأردو والبنغالي والتاميل والتلوغو والدفنقاري). ويُدرَّسون في لهجاتهم الخاصة التاريخ والجغرافيا والرياضيات والعلوم الاقتصادية والسنسكريتية. وفي الوقت عينه يزاولون الزراعة والنسج اليدوي. كذلك نحن في غنًى عن القول إن الروح الديني يشمل هذا التعليم بتمامه. ومتى انتهت الدراسة خُيِّر هؤلاء الفتيان بين خطتَين: إما أن يبرموا عهودًا على نحو ما فعل إخوانهم الأولون، وإما أن يغادروا الأشرم. والتعليم برمته مجاني.

لأمرٍ ما أطلت الكلام على هذا البرنامج التربيي، فهو يدل على ما في حركة غاندي من روحانيةٍ سامية، وهو بمراميه أعظم عوامل الحركة شأنًا. ينبغي كي نوحد هندًا جديدة أن نوجد نفوسًا جديدة، قوية طاهرة، هندية حقًّا وصدقًا، وينبغي كي نوجد هذه النفوس أن يُؤلف جيش مقدس من الحواريين، فيكونوا كحواريي المسيح «ملح هذه الأرض». ليس غاندي بصانع شرائع وقوانين على مثال ثوريي أوروبة، بل هو عجَّان إنسانيةٍ جديدة.

إن الحكومة، مثل كل حكومة في موقفها، لم تفهم شيئًا مما حدث، فكان أول ما بدر منها إشارة سخرية وكِبر، وقد قال نائب الملك، اللورد شلمسفورد، في أغسطس ١٩٢٠: «إن أعظم الحماقات هذه الحماقة.» لكن الحكومة ما لبثت أن اضطرت إلى النزول من سماء عجرفتها، وكانت قلقة مضطربة لما نشرت في ٦ نوفمبر ١٩٢٠ بيانًا فيه وعد ووعيد على السواء، تقول به إنها لم تشأ معاقبة الجناة؛ لأن قادة الحركة كانوا يدعون إلى عدم استعمال العنف، بيد أنها أصدرت أمرًا بمحاكمة الذين يجاوزون الحدود الموضوعة، ويحضون على التذرع بالشدة والعصيان بقوة السلاح.

وسرعان ما جِيزَت الحدود، ولكن من جانب الحكومة. لقد نمت الحركة نموًّا مقلقًا، وحدث في ديسمبر ١٩٢٠ حادث ذو شأن لم يكن في الحسبان: لم تكن «اللامعاونة من غير عنف» حتى ذلك الحين إلا خطة مؤقتة أو تجربة تقوم بها الهند، وكانت الحكومة تمنِّي النفس بأن المجلس الهندي العام سوف يلغيها في دورة نهاية السنة، فجاء المؤتمر الهندي الوطني المنعقد في ناغبور يثبت تلك الخطة في المادة الأولى من الدستور: «المادة الأولى: يرمي المؤتمر الوطني إلى تحقيق سواراج (الحكم الذاتي) الشعب الهندي، ويتذرع إلى ذلك بكل الوسائل السلمية والمشروعة.»

وأثبت أيضًا خطة اللامعاونة التي كانت الدورة الخاصة في سبتمبر ١٩٢٠ قد قررتها، ووسَّع نطاقها خاصًّا بالذكر مبدأ اللاعنف، مبينًا ضرورة الاتفاق بين مختلف العناصر في البلاد لفوز القضية، داعيًا إلى الاتحاد الهندوسي الإسلامي، بله إلى تقارب الطوائف الممتازة والمنبوذة. وأخص ما أدخله على الدستور تحويرات أساسية تنعم على البلاد بنظام تمثيلي شامل أجزاءَ الهند كافة،[١٣] وأعلن المؤتمر أن اللامعاونة في شكلها الحاضر ليست إلا مرحلة أولى في هذا الجهاد، وأن عدم مشاركة الحكومة في شيء والكف عن أداء الضرائب سيدخلان في حيز العمل في زمن يُعيَّن من بعد، ولإعداد البلاد لذلك اليوم المشهود نرى المؤتمر يوسع نطاق المقاطعة، ويشجع النسج الهندي، ويحث الآباء والطلاب على العمل بمبدأ اللامعاونة بأشد حمية من ذي قبل، أما الذين يخالفون قرارات المؤتمر فإنهم يُخرَجون من الحياة العامة.

هذا تثبيت دولة ضمن دولة، دولة الهند الحقة إزاء الحكومة البريطانية؛ لذلك لم يكن بوسع الحكومة أن تقف بلا حراك: إما أن تصالح وإما أن تحارب، ولقد كان الاتفاق ميسورًا عهدئذٍ لو أُبديَ شيء من التساهل، فإن المؤتمر أعلن أنه بالغ الغاية «بالاشتراك مع إنكلترة إذا شاءت، وإلا فبدون معونتها»، لكن العنف تغلب أيضًا هذه المرة كما عوَّدتنا سياسة أوروبة نحو الأمم الأخرى، وطلبوا العلل والمعاذير فلم يعدموها.

ورغم عزيمة غاندي والمؤتمر الأكيدة على عدم استعمال العنف قامت في مختلف نواحي الهند عدة فتن وقلاقل ذات شأن لم تكن لها بحركات اللامعاونة إلا صلات بعيدة، ففي الولايات المتحدة (الله آباد) نشبت ثورات من الفلاحين ومستأجري الأرض على مُلَّاكها، قمعتها الشرطة قمعًا داميًا. ثم إن حركة «العقالي» من طائفة السيخ التي كانت بالأصل دينية صرفة، اتخذت أساليب اللامعاونة، ونشأ عنها في فبراير ١٩٢٠ قتل مائتين من السيخ، ليس لمنصف أن يحمِّل غاندي وصحبه تبعة هذه الفاجعة، وليدة التعصب، لكنها

---

[١٣] اشترك في مؤتمر ناغبور ٤٧٢٦ مندوبًا: ٤٦٩ من المسلمين و٦٥ من السيخ و٥ من البارسيين و٢ من الأنجاس و٤٠٧٩ من الهندوس و١٠٦ من النساء. وينص الدستور الجديد على أن يكون عن كل ٥٠ ألف نسمة مندوب واحد فيكون مجموع المندوبين إذًا ٦١٧٣، ويعقد مؤتمر جميع الهند دورة واحدة في السنة (حوالي عيد الميلاد). أما لجنة المؤتمر التي تضم نحو ٣٥٠ عضوًا فهي مكلفة بأن تنفذ سياسة المؤتمر مُؤَوِّلةً قراراته، ولها في الفترة بين الدورتَين سلطة المؤتمر بتمامها. وثمة أيضًا لجنة مؤلفة من ١٥ عضوًا هي كالوزارة إزاء البرلمان، وللجنة المؤتمر حق إسقاطها. واختط مؤتمر ناغبور خططًا لتنظيم لجان مؤتمرات الولايات التي تمثل ٢١ ولاية و١٢ لغة.

فرصة سنحت، فبدأ قمع الفتنة في أول مارس ١٩٢١ واستمر حتى نهاية السنة وهو يزداد شدة وقسوة، ولقد تعللت الحكومة إذ ذلك بالتظاهرات التي أُقيمت ضد باعة الأشربة الكحولية، وليست هذه أول مرة تمشي فيها الكحولية والمدنية الأوروبية يدًا بيد، فصدر الأمر بمنع تعبئات متطوعة اللامعاونة، وسُنَّ قانون لمنع الاجتماعات الشَّغِبَة، وأُطلقت يد الشرطة المحلية في ولايات عديدة لسحق هذه الحركة التي وُصفت بالثورية الفوضوية، وأُلقي القبض على ألوف من الهنود، ولم تُراعَ حرمة أعيان القوم. وبالطبع فإن هذه التدابير أيقظت الفتنة ونشأ عنها في أمكنة مختلفة قتالٌ بين الشرطة والجمهور، وحوادث قتل وحرق، فاجتمعت لجنة المؤتمر الهندي ببزوادا في آخر أسبوع من شهر مارس ونظرت فيما إذا كان يجب إعلان العصيان المدني، لكنها رأت بحكمة نادرة المثال أن الأمة لم تنضج النضوج الكافي ولم تُنظم التنظيم الواجب لاستعمال هذا السلاح ذي الحدين، فقررت الانتظار، وعاد غاندي بأشد حماسة من قبل إلى الجهاد في سبيل الوحدة الهندية، واتحاد الأديان والأقوام والأحزاب والطوائف، ووجَّه خطابه إلى البارسيين[١٤] (وهم في الهند أصحاب الثروات والتجارة والصناعة الكبرى) المصطبغين كما يقول بصبغة الروح الركفلري، وكان الاتحاد الهندوسي الإسلامي مهددًا أبدًا بسطوة الأوهام القديمة والمخاوف والرِّيَب المتبادلة، فانصرف إلى العمل بكليته،[١٥] لا يسعى إلى مزج الشعبَين مزجًا هو اليوم من المستحيلات — ولو أمكن لما رغب فيه — بل إلى إيجاد تحالف قائم على أساس الصداقة.[١٦]

وكان أسمى جهود غاندي ما بذله لإدخال الطوائف المنبوذة في الجامعة الهندية، فإن مطالبته الشديدة بحقوق الباريا وصرخات الألم والسخط التي كانت تلك الظُّلامة الاجتماعية تبعثها من صدره، كافية وحدها لتخليد اسمه. إن الألم الذي يصيبه من جراء

---

[١٤] ٢٣ مارس ١٩٢١.

[١٥] ٦ أكتوبر ١٩٢٠–١١ مايو و٢٨ يوليو و٢٠ أكتوبر ١٩٢١.

[١٦] وكان يضرب المثل بصداقته الصميمة للمسلم مولانا محمد علي، على أن كلًّا منهما ظل محافظًا على دينه. إن غاندي لا يزوج ابنته من أحد أبناء محمد علي ولا يؤاكل صديقه، وكذلك أمر محمد علي، ولكن هذا لا يمنعهما من أن يثق كلٌّ منهما بالآخر، وعلى كلٍّ فإن غاندي لا يزعم أن تزاوج المسلمين والهندوس ومؤاكلة بعضهم لبعض من المنكرات، ولكن ينبغي أن يمر قرن قبل الوصول إلى هذا الامتزاج، وما كانت السياسة العملية الرشيدة لتنحو نحو مثل هذا الإصلاح. إن غاندي لا يعارضها، لكنه يرى أنها سابقة لأوانها، وهو دليل آخر على حسن نظره في الشئون العملية.

ما يسميه «أفحش الأدناس اللاصقة بالهندوسية» صادر عن ذكريات صباه. يقول إن واحدًا من الباريا كان يأتي إلى بيتهم وهو صغير؛ لقضاء الحاجات الدنيئة، فكان أهله يحرمون عليه ملامسة ذلك الرجل، أو يتوضأ، وكان غاندي لا يسلِّم بذلك ويجادلهم في الأمر، وكثيرًا ما كان في المدرسة يلامس الأنجاس، فكانت أمه تشير عليه أن يلامس مسلمًا ليتطهر من ذلك الدنس، لكنه لما بلغ الثانية عشرة قر رأيه وأخذ على نفسه عهدًا أن يمحو هذا الإثم من وجدان الهند، ونوى الأخذ بناصر إخوانه الأدنياء، ولم يظهر غاندي حرية فكر أوسع مما أظهره في خدمة قضيتهم، ودليل ذلك أنه مستعد لترك دينه إذا بُرهن له أن النجاسة نص من نصوصه، ورأيه أن هذه الظُّلامة وحدها كافية لتبرير كل الظلامات التي يُصاب بها الهنود في العالم:[١٧] «إذا كان الهنود قد أصبحوا «باريا» الإمبراطورية فإن هذا من رَجْع العدل الأزلي، ليبدأ الهنود بغسل أيديهم الملطخة بالدم! إن عقيدة النجاسة لأكبر عار على الهند. وفي أفريقية الجنوبية وأفريقية الشرقية والكندا يُعامل الهنود أيضًا معاملة الباريا. إن السواراج (الحكم الذاتي) لمن المستحيلات ما زال في الهند «باريا». الهند آثمة. إن إنكلترة لم تأتِ ذنبًا أعظم. أول فرض علينا هو أن نحمي الضعفاء وأن لا نسيء إلى نفس أحد من البشر. نحن لن نفضل العجماوات ما لم نتطهر من هذا الإثم. ينبغي أن يكون السواراج سؤدد العدل على الأرض من أقصاها إلى أقصاها.»[١٨]

ويريد غاندي أن تصلح حال الإخوان الباريا بتشريع وطني، وأن يُمنحوا كثيرًا من المدارس والآبار؛ لأن الانتفاع بالآبار العامة كان محرمًا عليهم، ولكن ما العمل قبل بلوغ هذه الغاية؟ إن نفاد صبره الذي لا يأذن له بأن يقف مكتوف اليدَين منتظرًا إقدام الطوائف الممتازة على رفع تلك الظلامة من تلقاء أنفسهم حمله على الانضمام إلى الباريا، فترأسهم وعمل على جمع شتاتهم، وأخذ ينظر وإياهم في مختلف الخطط: ماذا يستطيعون؟ أيستنجدون بحكومة الهند؟ هو انتقال من رقٍّ إلى رق آخر، أيرتدون عن الهندوسية — من الأمور الجديرة بالنظر هذه الجرأة السمحاء من مؤمن هندوسي كبير — ويدينون بالنصرانية أو الإسلام؟ يكاد غاندي ينصح بذلك لو كانت الهندوسية مقرونة بمبدأ النجاسة، لكنه يعتقد أنها «غُدة» وخيمة يجب أن تُجتث من أصلها. ينبغي إذًا أن ينظم الباريا صفوفهم للدفاع عن كيانهم، وأن لديهم سلاحًا صارمًا هو سلاح اللامعاونة

[١٧] خطاب عام في ٢٧ أبريل ١٩٢١.

[١٨] ٢٧ أكتوبر ١٩٢٠ و٢٧ أبريل ١٩٢١.

يحاربون به الهندوسية إذ يقطعون كل صلة بسائر الهنود (نصائح عجيبة بجرأتها ودعوتها إلى الثورة الاجتماعية في فم هذا الوطني!) لكن غاندي يستدرك قائلًا إن الباريا عاجزون عن تنظيم أنفسهم؛ إذ لا زعماء لهم، لينضموا إذًا — وهو قصاراهم — إلى حركة اللامعاونة الهندية العامة التي أول شروطها اتحاد الطوائف. إن اللامعاونة طهارة دينية، ولا يصح أن يشترك بها من ينبذ الباريا؛ لأنه يأثم بذلك إثمًا كبيرًا، وهكذا أفلح غاندي في التوفيق بين الدين والوطن والإنسانية.[١٩]

وتُوِّجت هذه المساعي الأولى في سبيل الوحدة بـ «مؤتمر الطوائف المنبوذة» في أحمد آباد الذي ترأسه غاندي في ١٣ و١٤ أبريل ١٩٢٠، وألقى فيه خطبة من أجمل خطبه. هو لا يكتفي بالمطالبة بالمساواة بين الطوائف، بل ينتظر أيضًا من الباريا أعمالًا جليلة في حياة الهند الاجتماعية الجديدة، ويرد الثقة والإيمان إلى نفوسهم، وينفخ فيهم من روح الأمل الذي يضطرم في صدره. لقد آنس فيهم قوًى كامنة عظيمة، وهو على يقين من أن الطوائف النجسة قادرة بعد خمسة شهور، بأهليتها وكرامتها، على أن تتبوأ مقامها الحقيقة به، في الأسرة الهندية الكبرى.

وأسعد الحظ غاندي فرأى الهنود ينفعلون لهذه الدعوة التي خاطب بهم قلوبهم، وشهد تحرير الباريا في كثير من الأمصار،[٢٠] ولقد كان عشية القبض عليه لا يزال عاملًا في هذه السبيل، عادًّا الخطى التي خطتها القضية إلى الأمام، وانصرف البراهمة إلى تحقيقها بكليتهم، وأعطت الطوائف الممتازة أمثلة مؤثرة من الندم والحب الأخوي، ويذكر غاندي قصة فتًى من البراهمة في الثامنة عشرة من عمره جعل نفسه كناسًا ليعيش مع الباريا.[٢١]

كذلك أظهر غاندي شرف نفسه وسمو همته في أخذه بقضية أخرى، نعني قضية المرأة.

إن للمسألة الجنسية شأنًا كبيرًا في الهند الرازحة بعبء شهوانية طامية فادحة غير منظمة، فتزويج الصغار يستنفد قبل الأوان عزائم الأمة الجسمانية والروحية، وشيطان

---

[١٩] ٢٧ أكتوبر ١٩٢٠.

[٢٠] منذ آخر أبريل ١٩٢١ أخذ مبدأ النجاسة في الخسران وأصبح الباريا في كثير من القرى يعيشون مع سائر الهنود ويتمتعون بمثل حقوقهم (٢٧ أبريل ١٩٢١)، لكن ما زالت حالتهم في نواحي أخرى، لا سيما في مدراس، تدعو إلى الأسف، وهذه المسألة مطروحة اليوم على المجالس الوطنية الهندية، وقد سبق لمؤتمر ناغبور أن أظهر في ديسمبر ١٩٢٠ رجاءه في أن يُمحى إثم النجاسة.

[٢١] ٢٧ أبريل ١٩٢١.

الشهوة يثقل على الفكر، وينشأ عن ذلك الحط من كرامة المرأة؛ لهذا أخذ غاندي ينشر شكوى الهنديات من الحالة السيئة التي يجعلهن فيها وطنيو الهنود،[٢٢] وهو يؤيد هذه الشكايات قائلًا: إن هذه قرحة في الهند وخيمة كمبدأ النجاسة، لكنه يستدرك بقوله: إن العالم بأسره مصاب بها وإن المشكلة كونية عامة، وهو يرجو مثل رجائه في قضية الباريا، أن يصدر الإصلاح من المضطهَدين لا من المضطهِدين، فهو يخاطب النساء سائلًا إياهن أن يُلزمن الرجال باحترامهن أولًا، وذلك بأن يكففن عن اعتبار أنفسهن موضع شهوة الرجل. ليشتركن بعزم في الحياة العامة، وليقدمن على مكارهها وأخطارها. ليس حسبنا أن يكف النساء عن بذخهن وأن يطَّرحن الأنسجة الأجنبية ويحرقنها، بل ينبغي أيضًا أن يشاطرن الرجال كل متاعبهم. لقد أُلقي نسوة من الأشراف في غيابة السجن بكلكتا: هذا خير! ليتحاشين المطالبة بمعاملة خاصة، وليُظهرن كالرجل صبرًا على مكاره الحياة وحسن احتمالٍ لشظف العيش. بوسع المرأة أن تبذَّ الرجل في هذه السبيل. لا يخشَ النساء شيئًا، فإن أضعفهن قادرة على حفظ شرفها: بحسبها أن توطن نفسها على الموت!

ولم ينسَ غاندي «أخواتنا الساقطات»[٢٣] فهو يروي الأحاديث التي دارت بينه وبينهن في مجالس مؤلفة من مئات منهن في ولاية أنضرا وفي باريسال، وكان يحدثهن بكرم نفس غير مصطنع، ويحدثنه ويساررنه ويسألنه نصحًا. هو يبحث لهن عن مهنة شريفة ويقترح عليهن المغزل، وهن يعدنه بالانصراف إليه غدًا إذا مُدت إليهن يد المعونة. ثم إن غاندي يخاطب رجال الهند مذكرًا إياهم بوجوب احترام المرأة قائلًا: «إن هذا الأسلوب في اللهو بالرذيلة لا موضع له في ثورتنا، معنى السواراج هو أننا نعتبر سكان الهند كافة أخوة وأخوات ... الاحترام واجب لهم جميعًا. ليس جنس النساء بالجنس الضعيف، بل هو أشرف الجنسَين بما فيه من قوة على تضحية النفس واحتمال العذاب والضراعة والإيمان والمعرفة. كثيرًا ما فاق حدس المرأة ادعاء الرجل علمًا فائقًا.»

ولقي غاندي من الهنديات، بدءًا بامرأته، معونة لبيبة، وكان أفضل مريديه من النساء.

---

[٢٢] ٣١ يوليو ١٩٢١ و٦ أكتوبر ١٩٢٠.

[٢٣] هذا عنوان إحدى مقالاته: أخواتنا الساقطات (١٥ سبتمبر ١٩٢١).

الفصل الثالث

بلغ سؤدد غاندي الذروة سنة ١٩٢١، فكان له سلطان معنوي كبير، وأُعطي ولم يطلب، قوةً سياسية تكاد تكون غير محدودة، فالشعب يعتقد أنه من الأولياء، وقد مثَّلوه في صورة «شري كرشنا».[١] وفي ديسمبر ١٩٢١ خلع عليه مؤتمر جميع الهند الوطني السلطة الكاملة الشاملة وفوَّض إليه كل الشئون، وترك له الخيار في تعيين خلفه. هو زعيم الأمة الهندية بلا منازع، إن شاء أطلق الثورة من عقالها، وإن شاء وضع الأسس لإصلاح ديني.

لكنه لم يفعل ولم يُرِد ذلك، أكِبر نفسٍ أم خشيةٌ وإحجام؟ ربما كلاهما، من الصعب على المرء (سيما إذا كان ابن مدنية غريبة) أن ينفذ إلى ضمير عميق دقيق بهذا المقدار، كضمير غاندي، ومن الصعب أن نحكم حكمًا صحيحًا هل كانت يد النوتي، في خضم الحوادث التي تدافعت الهند في تلك السنة المائجة، أبدًا ثابتة، فقادت السفينة العظيمة، دون أن تحيد أو تضطرب؟ ولكن سأجتهد لبيان ما استطعت أن أعرفه من هذا اللغز الحي، بالإجلال الديني الذي في نفسي نحو ذلك الرجل العظيم، وبالصدق الواجب عليَّ لصدقه وإخلاصه.

إذا كان سلطان غاندي كبيرًا، فإن مخاطر استعمال هذا السلطان ليست أقل شأنًا. لقد اتسع نطاق العمل السياسي وأصبح يحرك مئات الملايين من الخلق؛ لذلك كانت قيادته وحفظ التوازن في عباب ذلك البحر الزاخر يزدادان صعوبة. مشكلةٌ تجاوز طاقة البشر: أن توفق بين اعتدال الفكر وسعة النظر، وبين هذه الجموع المطلقة القياد. إن النوتي

---

[١] يحتج غاندي على ذلك في «الهند الجديدة» يونيو ١٩٢١.

التقي الحليم يصلي ويتوكل على الله، لكن الصوت الذي يسمعه يصل إليه ممزوجًا بصخب العاصفة، ثم هل يبلغ ذلك الصوت أسماع الآخرين؟

لا أحد أقل تعرضًا من غاندي لخطر الكبرياء، فما كان لعبادة العامة إياه أن تضيع رشده، بل إنها كانت تجرح ضراعته كما تسيء إلى إدراكه الصحيح. هو مثال فذ في تاريخ الأنبياء وكبار المتصوفين من جهة أنه ليس له رؤى، ولا وحي يُوحى، وأنه لا يحاول اعتقاد ذلك ولا جعل الناس يعتقدونه، فلله هذا الصدق النزيه! لقد ظل رأسه بلا سُكْر، وقلبه بلا غرور. كان ولم يزل رجلًا مثل كل الرجال، لا، لا تلقبوه بالقديس أو الولي. إنه لا يريد ذلك (وهو بهذا ولي حقًّا)، قال غاندي: «يجب أن نضرب على كلمة «قديس» وأن نمحوها من الحياة الحاضرة. أنا أصلي مثل كل هندوسي صالح، وأعتقد أننا قادرون جميعًا على أن نصبح من رسل الله، ولكن لم أوتَ وحيًا خاصًّا من عند الله. أنا على يقين من أن الله يتجلى لكل إنسان، لكننا نسد آذاننا فلا نسمع ذلك الصوت الخفيت الباطن ... لست إلا عاملًا حقيرًا وخادمًا وضيعًا للهند وللإنسانية، ولا أرغب قط في تأسيس فرقة دينية؛ لأني أطمح إلى أسمى من هذا. لست أدعو إلى حقائق جديدة، بل إني أعمل على إظهار الحقيقة كما أعرفها وعليَّ اتِّباعها. إني أرسل نورًا جديدًا على كثير من الحقائق القديمة.»[٢]

إذًا هو في نظر ذاته وضيع الجانب، شديد الاحتراس، عاجزٌ عن كل حصر أو استئثار، سواء بصفته وطنيًّا هنديًّا أم بصفته داعية اللامعاونة، لا يقر ظلمًا ولو في سبيل القضية العادلة: «لا ينبغي لنا أن نستبدل رق الحكومة برق دعاة اللامعاونة.»[٣] ولا يرضى كذلك أن يعارض بوطنه سائر الأوطان؛ لأن وطنيته ليست محصورة بين حدود الهند: «الوطنية والإنسانية واحدٌ في نظري. أنا وطني لأني إنسان، لست متعصبًا ولن أسيء إلى إنكلترة أو إلى ألمانية لأنفع الهند، ليس لروح التغلب موضع في خطة حياتي ... إن الوطني يبعد عن الوطنية بقدر ما يضعف حبه للإنسانية.»[٤]

ولكن هل كان لأتباعه أبدًا مثل هذا الاعتدال؟ كيف يكون مذهبه في أيدي بعضهم؟ وماذا يصل منه إلى العامة بوساطتهم؟

---

[٢] ١٢ مايو ١٩٢٠ و٢٥ مايو و١٣ يوليو و٢٥ أغسطس ١٩٢١.

[٣] ٨ ديسمبر ١٩٢٠.

[٤] ١٦ مارس ١٩٢١.

لما عاد رابندرانات تاغور إلى الهند في أغسطس ١٩٢١ بعد رحلة في أوروبة دامت بضع سنين، أقلقه التبديل الذي شهده في أفكار الهنود، لكن قلقه لم ينتظر العودة كي يظهر للناس، فقد أعرب عنه في سلسلة من الرسائل يخاطب بها من أوروبة أصدقاءه الهنود، ونُشر كثير منها في مجلته Modern Review،[٥] ومن الواجب أن نقف عند هذا الخلاف القائم بين مفكرَين جليلَين يحترم كلٌّ منهما الآخر ويُعجب به، لكنهما مفترقان حتمًا بقدر ما يفترق حكيم مثل أفلاطون عن حواري كالقديس بولس. هنا ملاك الإيمان والرحمة الذي يريد أن يكون خميرة إنسانية جديدة، وهناك ملاك العقل الحر الرحب المطمئن الذي يريد أن يضم في صدره مظاهر الوجود كلها.

ما فتئ تاغور مصدقًا بقداسة غاندي، وقد سمعته يحدثني عنه بإجلال كبير، فلما ذكرت تولستوي في عرض الحديث عن المهاتما، أظهر تاغور أن غاندي أقرب إليه من تولستوي، وأكثر نورانية (وهو رأيي اليوم إذ أصبحت أَعرَف به من قبلُ)؛ لأن كل ما في غاندي فطرة ساذجة متضعة طهورة، والطمأنينة تكسو النزاع الذي قد ينشب في باطنه، على أن كل ما في تولستوي ثورة كبرياء على الكبرياء، وغضب على الغضب، وهوًى على الهوى، بل إن جماع نفسه العنف، حتى في اللاعنف. كتب تاغور من لندن في ١٠ أبريل ١٩٢١: «نحن مدينون لغاندي بأنه منح الهند فرصة تبرهن فيها على أن إيمانها بالروح الإلهي في الإنسان لا يزال حيًّا.» وهو رغم اعتراضه على نواحي من حركة غاندي، يُظهر إذ غادر فرنسة عائدًا إلى وطنه، استعداده لمساعدته، بل إن البيان الساطع الذي نشره في أكتوبر ١٩٢١ (سأنقله فيما بعد) بعنوان «نداء الحقيقة»، وفيه إثبات القطيعة بين الرجلَين، مستهلٌّ بأعظم مديح مُدح غاندي به.

وغاندي كذلك يعرب عن احترامه الودي لتاغور، ويحاول جهده أن لا يحيد في خلافه معه عن هذا الاحترام قيد شعرة. وإن القارئ لَيشعر بأن غاندي يعاني نصبًا كلما اضطر

---

[٥] نُشرت رسائل ٢ و٥ و١٣ مارس ١٩٢١ في «المجلة الحديثة»، جزء مايو ١٩٢١، ونُشرت مقالة «نداء الحقيقة» التي كتبها تاغور بعد رجوعه إلى الهند في «المجلة الحديثة» في أول أكتوبر ١٩٢١.

وعدا هذا الجدال القلمي، نعرف أنه كان بين تاغور إثر عودته، وبين غاندي، اجتماع خاص لم ينقل أحدٌ ما دار خلاله من الأحاديث، لكن س. ف. أندريوس الذي شهد وحده ذلك الاجتماع تفضَّلَ بإطلاعنا على المواضيع التي دار حولها الجدل، وعلى الحجج التي أدلى بها كلٌّ من الرجلَين.

إلى مجادلته، وحينما كان يعمل بعض أصدقائه الأخيار على إذكاء نار الخلاف بنقل بعض الأحاديث الخاصة، كان غاندي يلزمهم الصمت مؤكدًا ما هو مدينٌ به لتاغور.[٦]

ولكن كان حتمًا أن يبدو ما بين فكرَيهما من خلاف، ومنذ صيف ١٩٢٠ رأينا تاغور يُعرِب عن أسفه على أن قوة الحب والإيمان التي يفيض بها قلب غاندي قد جُعلت بعد موت طيلاق في خدمة السياسة، ومن الثابت أن غاندي لم يوطن نفسه على ذلك الأمر بطيب خاطر، لكن طيلاق مات فأصبحت الهند بلا زعيم سياسي، فوجب أن يخلفه.

قال غاندي إذ عقد النية على ذلك: «إذا ظهر أني أشتغل بالسياسة فهو لأن السياسة تلتف علينا اليوم التفاف الأفعى، ولا سبيل مهما صنعنا إلى التملص منها. أريد إذًا أن أحارب الأفعى ... إني أعمل على إدخال الدين في السياسة.»[٧]

لكن تاغور يبدي أسفه لهذه الضرورة، قال في ديسمبر ١٩٢٠: «إن القوة المعنوية التي تمثلها سيرة مهاتما غاندي، والتي يستطيع هو وحده أن يمثلها، دون الناس جميعًا، واجبة لنا، فأما أن يُجعل مثل هذا الكنز الثمين في سفينة سياستنا الواهية ويقذف بها في أمواج غير متناهية من الشكاوى المستشيطة؛ فهي إذًا مصيبة جسيمة تنزل بوطننا الذي لا مهمة له إلا أن يبعث الموتى بضرام الروح. إن التفريط في ثروتنا الروحية من أجل مغامرات هي من وجهة الحقيقة المعنوية سيئة، لمدعاة إلى الحزن الشديد، من الجناية أن تُحوَّل القوة المعنوية إلى قوة عمياء.»[٨]

وقد أملى عليه هذه الأسطر حملة اللامعاونة والاضطراب الذي أثار الهند باسم الخلافة وفظائع البنجاب، كان يخشى عواقبها في شعب ضعيفٍ قابل لعوارض غضب هستيري، فهو يود لو تُصرف الأمة الهندية عن فكرة الانتقام أو المطالبة بتعويض مستحيل، وتنسى ما فات، ثم لا تفكر إلا في إيجاد روح الوطن الأكبر. وبقدر ما يُعجَب تاغور بما في صدر غاندي وعمله من روح التضحية (هذا ما يقوله في رسالة ٢ مارس ١٩٢١ التي سأنقلها

---

[٦] تعارف تاغور وغاندي من عهدٍ بعيد، وقد حل غاندي أكثر من مرة ضيفًا على تاغور في صانتينكتان، ويقول غاندي إنه كان مأذونًا له أن يعتبر هذه الدار دار عزلة له، وفيها رُبي أولاده إذ كان غاندي في إنكلترة.

[٧] ١٢ مايو ١٩٢٠.

[٨] ثم قال: «كل الإجلال للمهاتما! لكن ساستنا لن يجدوا سبيلًا إلى عدم التفكير في تسخيره لمناورة خفية لبقة في لعبهم على رقعة الشطرنج.» ١ أكتوبر ١٩٢١.

بعد حين)، فهو يستنكر عنصر النفي الذي تضمنته العقيدة الجديدة؛ اللامعاونة. إن تاغور يكره كل ما فيه كلمة «لا»، وهي فرصة سانحة للمقابلة[٩] بين روح الإثبات في البرهمية القائمة على تطهير مسرات الحياة، وبين روح النفي في البوذية القائمة على الزهد فيها. ويدفع غاندي[١٠] هذا الرأي بقوله إنه قد لا يكون الرفض أقل وجوبًا من القبول، وإن الجهد البشري يتألَّف من كلَيهما على السواء. إن الكلمة التي خُتمت بها الأوبانشادا كلمة نفي، وتعريف البرهمي عند واضعي هذا الكتاب هو «نيتي» أي «ليس هذا». لقد خسرت الهند القدرة على أن تقول «لا»، فغاندي يُرجع إليها هذه القدرة، «قبل أن تطرح الحَبَّ يجب أن تنزع العشب الضار، وأن تجتثَّ الشر من أصوله.»

ولا مِراء في أن تاغور لا يريد اجتثاث شيء. إن تأمله الشعري يتسع لكل ما هو كائن، وهو ينعم بما في الوجود من نظام وانسجام، ولقد رأيناه يُعرب عن هذا في صفحات عبقرية الجمال، لكنها بالغة الغاية في التجرد عن كل عمل. هي رقصة «ناتاراجا» التي تلاعِب الأخيلة والأوهام: «إني مفرغ جهدي لأوفِّق بين تفكيري وبين هذه الحماسة العظيمة البالغة حدَّها الأقصى، التي تطمو الآن على وطني، ولكن من أين فيَّ هذا الروح، روح المقاوَمة، رغم رغبتي الأكيدة في صرفه؟ لا أجد جوابًا صريحًا لهذا السؤال، ولكن هنا، في ظلمات قنوطي، ابتسامة يذرُّ نورها وصوت يقول لي: «إن مكانك هو مع الأولاد، على ساحل العوالم ... هنالك طمأنينتك، وهنالك أكون بقربك.» لهذا أنا منذ حين ألهو باختراع أنغام جديدة وليست هذه الأنغام إلا هناتٍ جذلةً بأن تجري مع مر الساعات، ترقص تحت أشعة الشمس، ثم تغيب ضاحكة. ولكن بينما أنا ألهو إذ بالخليقة كلها في نعيم. وهل أوراق الشجر وأزهارها إلا تجارب أنغام لن تنقطع أبدًا؟! أليس إلهي هو العابث الأزلي بالأزمنة؟ إنه يقذف بالنجوم والسيارات في خضم التحولات، ويطرح الأعصر كسفائن من ورق ملأها بخطراته، وحينما أُقلق باله وأتوسل إليه أن يجعلني تلميذه الصغير وأن يقبل بعض الهنات التي من صنعي حمولةً في سفينة لهوه، يبتسم لي فأجري خلفه آخذًا بطرف ردائه، ولكن أين أنا وسط هذه الجماهير، مدفوعًا من وراء، مشدودًا من كل ناحية؟ وما هذا الضجيج المحيط بي؟ إن يكن نشيدًا فإن قيثارتي قادرة على أن تأخذ النغم، ثم أنضمُّ إلى الجوقة لأني من المغنين. أما إذا كان ضجيجًا فحسب، فإن صوتي لن يُسمع، وأنا غائب

---

[٩] ٥ مارس ١٩٢١.

[١٠] ١ يونيو ١٩٢١.

الرشد. لقد اجتهدت كل هذه الأيام، مرهفًا أذني؛ لأتبين ثمة نشيدًا، لكن فكرة اللامعاونة بحجمها الضخم الطنان وخطرها المتكاثف وصراخها بالنفي لا تغنيني بشيء قط؛ لهذا قلت لنفسي: «إذا كنت غير قادر على أن تماشي أبناء وطنك، خاطيًا خطاهم في هذه الأزمة الكبرى من تاريخ بلادك، فحذارِ أن تقول إنهم ضالون وإنك على هدًى، ولكن دعْ وظيفتك كجندي، وارجع إلى زاوية الشاعر، وتأهب لقبول هُزء العامة وسخطها.»[١١]

هذا ما كان يقوله غوتي — لو كان غوتي هنديًّا — ويلوح أن في هذا الكفاية: إن الشاعر يستأذن بالانصراف من العمل الذي ينفي ثم يلوذ بسحر الابتكار، لكن تاغور لم يقف عند هذا الحد، فإن القدر، كما يقول: «اختاره ليدفع سفينته في جهة مضادة للتيار.» ليس بالشاعر فقط بل هو يومذاك سفير آسية إلى أوروبة، السفير الروحاني، وقد جاء يسأل أوروبة عونًا على تحقيق الجامعة الكونية العامة التي يريد تأسيسها في صانتينكتان.

«يا لهُزء القدر! بينما أنا هنا، على هذا الساحل من الأقيانوس، أدعو إلى تعاون الثقافات بين الغرب والشرق، إذا بهم يدعون، على الساحل الآخر، إلى اللامعاونة.»[١٢]

كانت اللامعاونة تجرحه مباشرة في العمل الذي فرضه على نفسه وفي ثقته بالفكر الإنساني: «أنا مؤمن بالاتحاد الحقيقي بين الشرق والغرب.»[١٣]

وكانت تجرحه في مداركه التي وسعت ثقافات الدنيا جميعًا: «كل مفاخر البشرية مفاخر لي ... إن ذات الإنسان اللامتناهية (كما ورد في الأوبانشادا) لن تتحقق إلا في الوئام الأسمى بين الشعوب الإنسانية كافة ... ودعائي هو أن تمثل الهند تعاون أمم العالم جميعًا. في نظر الهند الوحدة هي الحقيقة والانقسام هو الضلال. الوحدة هي ما يشتمل على كل شيء، فلا يمكن إذًا الوصول إليها عن طريق النفي والإنكار. إن ما يُبذل اليوم من جهود لفصل روحنا عن الروح الغربي هو بمثابة انتحار أدبي ... إن الزمن الحاضر لفي سلطان الغرب، ولم يكن هذا في الإمكان، إلا لأنه أُلقيت إلى الغرب مهمة عظيمة لمصلحة الإنسان، فعلينا نحن أبناءَ الشرق أن نتعلم منه. لا شك في أن من الشر إهمالنا ثقافتنا القومية من زمن بعيد، وجعلنا الثقافة الغربية في غير موضعها الحق ... أما القول بأن من الشر أيضًا بقاءنا على اتصال بها فهو تشجيع لأحط مظاهر التعصب الإقليمي الذي لا يُنتج إلا فقر

[١١] ٥ مارس ١٩٢١.

[١٢] ٥ مارس ١٩٢١.

[١٣] ٥ مارس ١٩٢١.

المدارك. مشكلة العصر الحاضر مشكلة كونية عامة، فلن تستطيع أمة أن تنجو وحدها بالافتراق عن سائر الأمم، إما أن ننجو جميعًا، وإما أن نهلك جميعًا.»[١٤]

وكما أن غوتي لم يسلِّم سنة ١٨١٣ بوجوب كره المدنية الإفرنسية، فكذلك لا يقدر تاغور على التسليم بوجوب إلغاء المدنية الغربية. هو يعلم أن غاندي لا يرمي إلى ذلك أصلًا، لكن ثورة الأهواء القومية في الهند ستجعل لأقواله هذه الدلالة الفاسدة، وهو يخاف غائلة هذه البربرية الروحية: «إلامَ يتقدَّم الطلاب بقربان تضحيتهم؟ إنهم لا يتقربون بها إلى تربية أكمل بل إلى اللاتربية. أذكر أن نفرًا من الطلاب أثناء حركة السوادشي الأولى دخلوا عليَّ وقالوا لي: إذا أوصيتنا بترك مدارسنا وكلياتنا عملنا بنصحك دون تردد. فرفضت ذاك بشدة، وذهبوا ساخطين وهم في ريب من صِدق محبتي لوطني.»[١٥]

ففي تلك الأيام من ربيع ١٩٢١ إذ بلغ تاغور أن أبناء وطنه يقاطعون في الهند المدارس الإنكليزية، واغتم لهذا النبأ. شهد أيضًا في لندن مثالًا من ذلك التعصب الفكري، فإن فريقًا من الطلاب الهنود قاموا بتظاهرات شائنة خلال محاضرة كان يلقيها أستاذ إنكليزي من أصدقائه يُدعى برصن، فأغضب تاغور هذا العمل وكتب إلى مدير صانتينكتان كتابًا يعيب فيه هذا التعصب ويحمل حركة اللامعاونة تبعته، فرد عليه غاندي[١٦] منتقدًا التربية الأدبية الأوروبية التي لا تُعنى بتربية الخُلق والتي يتهمها بنزع صفة الرجولة عن الشبيبة الهندية، لكنه يستنكر فظاظة أولئك الطلاب ويحتج بحرية فكره وسعة صدره: «لا يهمني أن يكون بيتي محصورًا من كل ناحية ونوافذي مسدودة، بل يهمني أن تهب ريح الثقافات من كل البلاد وتجول طليقة بين جدران داري، ولكن لا أريد أن أُمَكِّن هذه الريح من حملي إلى حيث تشاء، ليس ديني دين سجن، فإن فيه موضعًا لأحقر خلق الله، لكنه مغلق دون جبروت الجنس والدين واللون.»

هذا كلام شريف لكنه لا يطمئن نفس تاغور. إن تاغور يثق كل الثقة في غاندي، لكن خوفه من الغانديين، فهو لم يكد يخطو إثر عودته في أغسطس ١٩٢١ خطاه الأولى

---

[١٤] ١٣ مارس ١٩٢١، ثم رجع إلى هذا الرأي وفصَّله في مقالته: «اتحاد الثقافات» في مجلته، نوفمبر ١٩٢١.

[١٥] حركة الاستقلال الهندي الأولى التي نشأت سنة ١٩٠٧–١٩٠٨ عن تقسيم البنغال.

[١٦] في مقالة «قلق الشاعر» أول يونيو ١٩٢١.

في الهند حتى ضاق صدره بإيمان الهنود الأعمى بتوكيدات الإمام جميعًا. وقد هاله هذا المظهر من مظاهر الاستبداد الروحي وما فيه من شر قريب، فنشر في أول أكتوبر بيانًا في «المجلة الحديثة» عنوانه «نداء الحقيقة» ينعى به ما يدعوه «ذهنية الأرقاء»، ومما يزيد هذا الاحتجاج قوة أنه مستهل بمدحة سنية لشخص المهاتما، فبعد أن ذكَّر تاغور بفواتح الحركة الاستقلالية في الهند سنة ١٩٠٧–١٩٠٨ قال: إن نظر زعماء السياسة الهندية كان لا يزال كتبيًّا صرفًا، وإنهم كانوا يستوحون أخيلة بورك وغلادستون ومازيني وغاريبالدي، وإنهم عجزوا عن مجاوزة الحد الذي بلغته عهدئذٍ الصفوة المفكرة التي تتكلم الإنكليزية: «في ذلك الحين جاء مهاتما غاندي، فوقف على عتبة كوخ الألوف من البائسين، لابسًا مثل لباسهم، وخاطبهم بلسانهم. هناك كانت الحقيقة لا في شاهدٍ من كتاب، وهكذا فإن اسم المهاتما الذي أُطلق عليه هو اسمه حقًّا، من الذي شعر غيره بأن أبناء الهند كافة هم من لحمه ودمه؟ إن القوى الروحية المقهورة، إذ لامست الحقيقة، تجلَّت للعيان، ولما وقف الحب الصادق بباب الهند، فُتح الباب بمصراعَيه، لقد أيقظت الحقيقةُ الحقيقةَ، شرفًا للمهاتما الذي جعل قوة الحق مشهودة! كذلك كان أمر بوذا إذ جهر بحقيقة الرحمة نحو الأحياء جميعًا، تلك الحقيقة التي كانت ثمرة رياضته نفسه، فإن الهند يومذاك بُعثت في زهو شبيبتها وفاضت قوتها علومًا وفنونًا وغنًى حتى غمرت البوادي وما وراء البحار ... لم يتوصل عمل تجاري أو حربي قط إلى مثل هذه النتيجة الجليلة. الحب وحده حق، وهو متى يمنح الحرية يجعلها في صميم نفوسنا.»

لكن هذا المديح ينقطع بغتة، وتتلوه الخيبة: «لقد طفت على البحار أنغامٌ من موسيقى هذه اليقظة العجيبة، يقظة الهند بفعل الحب، حتى وصلت إليَّ ... فعلى رجاء أن أتنشق النسيم اللطيف، نسيم الحرية الجديدة، عدت إلى وطني جذل الفؤاد، لكنَّ ما وجدته لدى وصولي أغمَّني وأيأسني. وجدت البلاد رازحةً بجو ثقيل يضغط على صدرها. لا أدري أي عامل خارجي كان يحمل الناس جميعًا على أن يتكلموا بلهجة واحدة وأن يشدوا أنفسهم إلى رحًى واحدة. أينما كنت سمعت الناس يقولون إن العقل والثقافة يجب أن يُقفل عليهما، وإنه لم يبقَ لنا إلا التمسك بأذيال الطاعة العمياء، لله ما أهون سحق حرية الإنسان الباطنة باسم الحرية الظاهرة!»

هذا احتجاجٌ وقلقٌ نعرفهما. لقد كانا في كل زمان، وقد أسمعنا إياهما أصحاب العقول الحرة الآخرون من أبناء العالم القديم المشرف على الزوال إزاء العالم المسيحي الناشئ، وإنَّا

لنشعر اليوم بقيام هذه المعارضة في أنفسنا كلما شهدنا هذه الأمواج البشرية تطمو بفعل المد الأعمى من عقيدة اجتماعية أو قومية. تلك ثورة النفس الحرة منذ الأزل على عصور الإيمان، الإيمان الذي أحدثته هي؛ لأن الإيمان حرية لا متناهية لحفنة من خيار الناس، ورِقٌّ للأمم التي تهتف له أو عبودة تُضاف إلى عبوداتها.

لكن لَوْم تاغور يرمي إلى أبعد من تعصب العامة، فهو يتخطَّى جماعات الناس السكارى بخمر الطاعة، ويصيب المهاتما. مهما تكن عظمة غاندي، أليست السلطة التي يحملها مما تنوء به قوى رجلٍ واحد؟ إن مثل قضية الهند لا يصح أن يُجعل في يدي زعيم فذٍّ، المهاتما هو إمام الحق والحب، ولا مراء في أن «عصا الذهب القادرة على إيقاظ وطننا ليبصر الحق ويعرف الحب ليست من الأمتعة التي يستطيع أي صائغ أن يصنعها ... لكن تأسيس السواراج أمر عظيم جليل، وسبله شاقة بعيدة المدى. لا غنى لنا في هذا المشروع عن الحماسة والعاطفة، لكن البحث والروية ليسا أقل وجوبًا، يجب أن يتدبر الاقتصادي، وأن يصنع الصانع، وأن يربي المربي، وأن يحتال رجل الدولة، وبكلمة وجيزة يجب أن تُبذل قوى البلاد المعنوية في كل ناحية. يجب أن نبقي في كل موضع على روح البحث وأن نطلقه من كل القيود وأن نمهد له كل العقبات، لا ينبغي لنا أن ندع العقل يجبن بضغطنا عليه سرًّا أم علانية.»

فتاغور إذًا يستنجد بكل ما في الهند من قوًى حرة، حاثًّا إياها على التعاون: «في غاباتنا العريقة في القدم كان حكماؤنا، إذا جاءهم الوحي، يدعون إليهم كل باحث عن الحقيقة ... لِمَهْ لا يرسل مثلَ هذا النداء حكيمُنا الذي يريد اليوم أن يقودنا في سبيل العمل؟»

لكن الحكيم غاندي لم يرسل غير هذا النداء، إلى كل رجلٍ وإلى الجميع: «اغزلوا وانسجوا!»

«أهذا هو نداء العصر الجديد إلى الخليقة الجديدة؟ إن يكن في الماكنات الكبيرة خطر على روح الغرب، أفليس في الماكنات الصغيرة خطر علينا أعظم وبالًا؟»

كذلك ليس حسبنا أن تتعاون قوى الأمة كافة، فيجب أيضًا أن تتعاون وقوى العالم جميعًا: «إن يقظة الهند متصلة بيقظة العالم ... أيما أمة تحصر ذاتها في ذاتها فهي مضادة لروح العصر الجديد.» ويذكر تاغور — الذي قضى في أوروبة بضع سنين — الرجال الذين اجتمع بهم هناك، أولئك الأوروبيين الأخيار الذين أطلقوا نفوسهم من رق التعصب القومي وجعلوها خالصة لخدمة الإنسانية جمعاء، تلك الأقلية المضطهدة المؤلفة من أناس وطنهم

الدنيا بأسرها، الذين يرفعهم تاغور إلى مقام السانياسين[١٧] لأنهم حققوا في أنفسهم الوحدة الإنسانية.

«ونحن وحدنا نظل راضين بأن نسبِّح باسم النفي، ولا نفتأ نذكر غلطات الغير، ونسعى إلى تشييد السواراج على أسس من الأحقاد ... إن الطائر متى يبعثه الفجر من مرقد، لا يستغرق طلب الغذاء يقظته كلها، فإن أجنحته تجيب دعوة السموات دون أن يصيبها كلال، وإن حلقه يرسل إلى النور الجديد أناشيد البهجة، كذلك الإنسانية الجديدة أرسلت دعوتها إلينا، فليجب فكرنا تلك الدعوة بلغته الخاصة ... أول فرض علينا، عند الفجر، هو أن نذكر الواحد الأحد الكائن بلا تمييز بين طائفة وطائفة أو بين لون ولون، الذي يكفي بمختلف قواه حاجات كل طائفة وكل الطوائف. لنبتهل إلى الذي يهب الحكمة أن يوحِّدنا جميعًا، في روية وفهم صحيح!»

إن هذا الكلام الملوكي، بل القصيدة المشرقة التي قلما سمعت مثلها أمة من الأمم، لتعلو على كل الخلافات البشرية، وليس فيها موضع للانتقاد إلا من جهة أنها تعلو عليها أكثر مما ينبغي. إن تاغور مصيبٌ، في ذروة العصور، والشاعر المحلق (أو القُبَّرة التي لها عِظَم النَّسْر كما يُسمي «هيني» أحد كبار موسيقيينا) يغني على أطلال الأزمنة. إنه يحيا في الأبدية، لكن الحاضر ملحاح والساعة التي تمر تتطلَّب لأوجاعها تسكينًا عاجلًا، ناقصًا، لكنه تسكينٌ على كل حال. إن غاندي الذي تُعوِزه تحليقات تاغور (أو لعله زهد فيها ليعيش مع البائسين) يجد هنا مجالًا للرد واسعًا، وقد رد هذه المرة بأشد مما سبق له أن يرد، خلال هذا الجدال الشريف، ولم يؤخِّر جوابه، فظهرت مقالته في جريدة «الهند الجديدة» في ١٣ أكتوبر وهي مؤثرة جدًّا. إن غاندي يشكر إلى «الحارس الجليل» تحذيره الهند من مخاطر يذكرها، وهو متفق وإياه على وجوب حرية النظر: «ليس على امرئ أن يجعل عقله في حفظ أحد من الناس. إن التسليم الأعمى شرٌّ في الأغلب من خضوع المكره لسوط المستبد. قد يُرجى الخير في من استرقته القوة الغاشمة، ولكن لا رجاء في من استعبده الحب.»

إن تاغور حارس أمينٌ يحذِّر من اقتراب أعداء يُسمَّون: الإفراط في التعبد، والجمود، والتعصب، والجهل، لكن غاندي لا يسلم بصحة انتقادات تاغور. إن المهاتما يخاطب دومًا العقل، ولا يصح القول إن في الهند طاعة عمياء. إذا كانت الأمة قد اعتزمت استعمال المغزل

[١٧] أي الذي انتهوا من حياتهم الشخصية ليُنعموا بالوحدة على الإنسانية.

فهي لم تعتزم ذلك إلا بعد تدبر طويلٍ جهيد. إن تاغور يحدِّث عن الصبر ويقنع بالأناشيد الجميلة، لكنها الحرب أُعلنت، فليضع الشاعر طنبوره جانبًا، له أن يغني بعد ذلك: «متى تشتعل النار في البيت، يحمل كل امرئٍ دلوه لإطفاء الحريق ...»

«حينما أرى الذين حولي يموتون لأنهم لا يجدون قوتًا، فإن الهم الوحيد الذي يجوز لي هو أن أطعم المتضورين جوعًا ... الهند بيت شبت فيه النار ... الهند تموت جوعًا إذ لا عمل لديها يكفل لها القوت، لُكنا تموت جوعًا ... هذه رابع مجاعة تصيب المقاطعات المنشقة ... أوريسا تعاني آلام مجاعة مزمنة. إن الهند تزداد كل يوم عياء، ويكاد لا يجري دم في عروقها، فإذا لم نتدارك الأمر، فإنها ستتداعى ثم تنقض ... إن الله لن يتجلى لشعب جائع لا عمل لديه، إلا في صورة العمل والطعام الموعود أجرًا على العمل. لقد خلق الله الإنسان ليكسب معاشه بعمله، وقال إن الذين يأكلون دون أن يعملوا هم لصوص ... لنفكر في ملايين الناس الذين هم أحط من العجماوات والذين يوشكون أن يموتوا في المغزل. حياة هؤلاء الملايين المحتضرين، والجوع هو الذي يدفع الهند إلى المغزل ... إن الشاعر يحيا لغده ويريدنا على الاقتداء به؛ فهو يمثل لأعيننا المأخوذة صورة الطيور الجميلة التي ترسل بكرة غناءها بالحمد، أو تحلق في الأجواء. ليست هذه الطيور خماصًا، فإن لها كل يوم رزقها، وهي تحلق محمولة على أجنحة مرتاحة تجدد دمها ليلًا، لكن نفسي عرفت الألم إذ رأيت طيورًا لا قوة فيها، فهي لا تجد رغبة حتى في تحريك أجنحتها قليلًا. إن الطير الإنساني، تحت سماء الهند، يستيقظ أضعف منه حين أوهم أنه يأخذ من الراحة حظه؛ لأن حياة ملايين من الخلق أَرَقٌ أبدي، أو سبات أبدي ... رأيت أن من المستحيل تسكين آلام الجائعين بنشيد من أناشيد الشاعر «كبير» ... أعطوهم عملًا يستطيعون به أن يجدوا ما يأكلون. أتسألون: ولكن علامَ أنت تنسج ولست مضطرًّا لأن تشتغل كي تعيش؟ ذلك أني آكل ما ليس لي وأعيش من سلب أبناء وطني. اقفوا أثر كل النقود التي تصل إلى جيوبكم تعرفوا صدق ما أقول. يجب أن تغزلوا، ليغزل كلٌّ منا! ليغزل تاغور مثل غيره! وليحرق ثيابه الأجنبية. هذا هو الواجب اليوم، إن الله يهتم بالغد، وكما ورد في «الجيتا»: اعمل العمل الحق!»

كلمات مظلمة فاجعة، ذلك هو البؤس الإنساني ينتصب قائمًا أمام رؤيا الفن ويصرخ في وجهه قائلًا: «اجرُؤْ على إنكاري!» من لا يفقه عاطفة غاندي المضطرمة، ومن لا يشاطره إياها؟

ومع ذلك فإن في هذا الرد الدال على أنفة النفس المتأملة ما يبرر بعض مخاوف تاغور: هي إذًا دعوة بلهجة الأمر إلى الخضوع لنظام الحرب. اعمل دون جدال بقانون السوادشي الذي ينص أول بنوده بأن على كل هندي، كل يوم، أن يستعمل المغزل.

لا مراء في أن النظام فرض لازِب في الجهاد الإنساني، لكن المصيبة هي أن المكلفين بإنفاذه، نعني أعوان الزعيم الأكبر، هم على الأغلب ضيقو الأفهام، يتوهمون ويوهمون أن ما ليس إلا واسطة لبلوغ الغاية هي الغاية أو المثل الأعلى. إن القاعدة تستهويهم بضيقها؛ لأنهم لا ينعمون إلا في السبل الضيقة، وهكذا أصبح السوادشي في نظر أعوان غاندي نصًّا جازمًا، واتخذ صفة القداسة، وقد نشر أحد كبار الأعوان أو المريدين، وهو د. ب. قالقار، من أساتذة تلك المدرسة الحبيبة إلى نفس غاندي: الصاتياغرا أشرام في سبرماتي (أحمد آباد) مؤلَّفه «إنجيل السوادشي» مستهلًّا بتصديق غاندي عليه وإجازته … وهذا الكتاب موضوع لجمهور العامة، فلننظر إذًا في العقائد التي يتلقاها الشعب عن أحد القائمين عند منبع المذهب الأصلي: «إن الله يتجلى، زمنًا بعد زمن، لفداء العالم … ولكن ليس تجليه في صورة البشر قاعدة ثابتة لا تتغير، فقد يتجلى أيضًا في صورة مبدأ مجرد أو رأي جليل ينفذان إلى صميم الكون … أما المجلى الجديد فهو إنجيل السوادشي.»

ويسلِّم صاحب هذا الإنجيل بأن هذا التوكيد حقيق بابتسام السخرية إذا لم يكن ثمة في السوادشي إلا دعوة إلى مقاطعة النسائج الأجنبية، لكن هذه المسألة الطفيفة ليست إلا تطبيقًا عمليًّا «لمبدأ ديني واسع يقصد به إنقاذ العالم بأسره من الشحناء وتحرير البشرية.» وخلاصته واردة في كتب الهند المقدسة، وإليكها: «إن عقيدتك الخاصة، وإن تكن خلوًا من المزايا، هي خير لك وأبقى. إن عملك بعقيدة ليست لك، محفوف أبدًا بالمخاطر، لا يعرف السعادة إلا الذي ينصرف بكليته إلى واجباته الخاصة به.»

والقاعدة الأساسية في السوادشي تقوم على الإيمان بـ «إله قد كفل للعالم أسباب السعادة إلى الأبد. إن هذا الإله جعل كل امرئ في البيئة التي توافقه لإنجاز عمله الخاص له، فينبغي أن تلتئم أعمال المرء جميعًا ومنزلته الخاصة في هذه الحياة الدنيا … وكما أنه لا خيار لنا في مولدنا وأسرتنا وموطننا، فكذلك لا خيار لنا في ثقافتنا. ليس لنا إلا الرضا بما قسم الله لنا، فيجب أن نرضى بتقاليدنا على أنها من عند الله، وأن نعمل وفقًا لها. إن جحودها لإثمٌ كبير.»

يُستدل من هذه النصوص الدينية أنه ليس لامرئ في وطنه أن يهتم لشئون البلاد الأخرى: «إن المؤمن بالسوادشي، الصحيح الإيمان، لا يأخذ على نفسه قط هذا العهد الباطل، وهو أن يصلح الكون؛ لاعتقاده أن الكون مدفوع، ولن يزال، في سنن سنها الله. وليس لنا أن نرجو من شعب أن يموِّن الشعوب الأخرى ويكفي حاجاتهم، ولو كان لعمل الخير أو حبًّا بالإنسانية. ثم إن يكن ذلك ممكنًا فهو غير مستحب ... إن المؤمن بالسوادشي حقًّا وصدقًا لا ينسى أن كل إنسان أخوه، لكنه مسئول أولًا أن ينجز العمل الذي يقضي به مولده ... وكما أننا مكلفون بخدمة الزمن الذي وُلدنا فيه، فكذلك نحن مكلفون بخدمة الوطن الذي وُلدنا فيه مهما يكلف ذلك ... ينبغي أن نسعى إلى تحرير أنفسنا عن طريق ديننا الخاص وثقافتنا الخاصة.»

ولكن أيجوز، على الأقل، لأمة من الأمم، أن تنمي كل ما لديها من أسباب إلى التبسط، كالتجارة والصنائع؟ كلا ما أشنع الرغبة في إتحاف الهند بمعامل كبيرة! إذ بهذا نحمل أناسًا آخرين على مخالفة «دارما»[١٨] هم الخاصة. ومن الجناية أن تُصدِّر أمة محاصيلها، كما أن من الجناية أن تستورد محاصيل غيرها من الأمم؛ لأن «الدعوة أو التبشير أمرٌ مكروه عند العاملين بالسوادشي». والنتيجة المنطقية من هذه القاعدة (نتيجة مفاجئة لكل أوروبي) هو: أنه لا ينبغي لشعب أن يصدر محاصيله ولا أفكاره. وإذا كانت الهند فيما مضى قد انحطت أيما انحطاط فهو تكفيرٌ عن ذنب الأسلاف الأولين الذين كانوا على اتصال بمصر وروما، وهذا الذنب اقترفته جميع الأجيال التي استمرت على ضلالها ولم تعرف التوبة. على كل أمة، بل على كل طائفة أن تلزم خطة حياتها الخاصة وأن تعيش بمحاصيلها وتقاليدها الخاصة: «لنتحاشَ الاختلاط بالذين تختلف عاداتنا الاجتماعية عن عاداتهم ... لا ينبغي لنا أن نربط حياتنا بحياة الأفراد أو الشعوب الذين لا يلتئم مثلهم الأعلى ومثلنا الأعلى ... كل امرئ جدول ماء، وكل أمةٍ نهر، فيجب أن يسيل كلاهما في مسيله، صافيَين من غير دنس حتى يبلغا بحر النجاة، حيث تمتزج الأنهار والجداول جميعًا.»

هو إذًا فوز العصبية القومية بأصرح أنواعها وأضيقها: اقبع في عقر دارك، اقفل الأبواب كلها، لا تغير شيئًا، احتفظ بكل ما لديك، لا تبع «الخارج» شيئًا ولا تشترِ منه شيئًا،

[١٨] أي معتقدهم والحالة التي قدرها الله لهم.

تطهَّر. هو إذًا إنجيل رهبان دير في القرون الوسطى،[١٩] وغاندي صاحب القلب الكبير يأذن بأن يُوضع عليه اسمه!

هنا سر انفعال تاغور الشديد لمرأى أولئك المتهوسة، متهوسة القومية الرجعية، الذين يزعمون أنهم يومئون إلى العصور فتقف، وأنهم قادرون على حبس نزعات الفكر في قفص، وعلى قطع كل جسر يصل بين الهند والغرب.[٢٠] والحق أن هذا لم يكن رأي غاندي، فقد كتب إلى تاغور يقول: «السوادشي رسالة إلى الناس كافة.» (فهو إذًا يحسب للإنسانية حسابًا ولا يكره الدعوة أو التبشير)، ويقول أيضًا: «ليس القصد باللامعاونة مناوأة الغرب، بل مناوأة المدنية المادية وما ينشأ عنها من استغلال الضعفاء.» (فهي إذًا لا تحارب إلا ضلالات الغرب وتعمل لمصلحة الغرب نفسه)، ثم يقول: «هو اعتزال في أنفسنا.» (لكنه اعتزال إلى حين؛ لاستجماع قوانا قبل جعلها في خدمة الإنسانية)، «ينبغي أن تتعلم الهند كيف تحيا قبل أن تتعلم كيف تموت في سبيل النوع البشري ...» ولا يرفض غاندي قط معونة الأوروبيين، ولكن بشريطة أن يقبلوا أولًا المثل الأعلى المنجي الذي يعرضه على الناس كافة.

هذه حقيقة رأي غاندي، وهو أرحب جدًّا وأقرب إلى الروح الإنساني، بل الجامعة العالمية العامة،[٢١] من الإنجيل الذي نُشر في ظله الظليل. إذًا فعلامَ أجازه؟ وكيف أمكن

---

[١٩] وإنك لتجد مع ذلك في مواضع مختلفة نصوصًا أخلاقية جديرة بالإعجاب، لا انتقام قط! «ما مضى فات. الماضي لا يُرد: لقد أصبح جزءًا من الأبد، وما لامرئ عليه من سلطان. لا تفكر بأن تثأر لنفسك جزاء المظالم والسيئات التي أصابتك في الماضي، ليدفن الماضي موتاه! ولنعمل في الحاضر الحي مسترشدين بقلبنا، مهتدين بالله.» إن لهذا الكتاب من فاتحته إلى خاتمته صفاء جبل من الثلج.

[٢٠] ومما يجعل هذه الكتابات وأمثالها أبلغ في التأثير على تاغور أنه كانت بين أشرم غاندي (الذي نجم منه هذا الإنجيل) وبين صانتينكتان تاغور منافسة اجتهد الزعيمان كثيرًا لتحاشيها، ويُلاحظ هذا في مقالة نشرها غاندي في «الهند الجديدة» ٩ فبراير ١٩٢٢، مظهرًا استنكاره أقوالًا عن الأشرم عزاها إليه صحافي، يُشْتَمُّ منها الزراية على صانتينكتان، فهو يحتج مصرِّحًا عن إجلاله لدار تاغور العلمية، لكن في كلامه شيئًا من التنكيت الخفي: «لو اضْطُررت إلى المفاضلة بين المدرستَين لفضلت صانتينكتان، رغم رياضة الأشرم ونهوض ساكنيه باكرًا. إن صانتينكتان هو الابن البكر، وهو أكبر سنًّا من الأشرم وأكثر علمًا.» ثم يقول غامزًا: «ليحذر ساكنو صانتينكتان! إن الأشرم الصغير يعدو مسرعًا.»

[٢١] ورأيي أن غاندي مثل تاغور في سعة مذهبه وشموله، ولكن على صورة أخرى، هو عالمي بوجدانه الأخلاقي، بينما تاغور عالمي بمداركه وذكائه. إن غاندي لا يُخرج أحدًا من مشاركة الصلاة والعمل

مريديه من حصر مثله الأعلى الأجل، الذي يُعرض على الدنيا بأسرها، في حدود ضيقة من تيوقراطية هندية؟ يا للتلامذة المخوفين! اللهم احفظ الرجل العظيم من هؤلاء الأصدقاء الذين لا يفقهون إلا شطرًا من مذهبه، فإذا دوَّنوه أفسدوا ما فيه من وحدة وتناسب، والوحدة رأس النعم التي تنعم بها علينا نفسه الحية.

وليس هذا كل ما في الأمر، فإن هؤلاء الذين يحيون على كثب من الإمام، نعني صحابته الأدنين، لن يزالوا موسومين بسمات روحه الشريف، ولكن ما قولك في صحابة صحابته، وتلامذة تلامذته؟ ثم ما ظنك بتلك الجماهير من العامة الذين لا يصل إليهم إلا أصداء مشوهة؟ ماذا يعون من مذهبه في تزكية النفس والتجرد البديع؟ يعون الصورة الظاهرة المادية: انتظارٌ (كانتظار المهدي) أن يحصل السواراج (الحكم الذاتي) بالمغزل. هو نكران كل ترقٍّ، وليس تاغور بمخطئ إذ يبدي اغتمامه لما يظهره من عنفٍ دعاةُ اللاعنف (وما غاندي نفسه بمنزه من ذلك) إزاء الأمتعة الغربية. لقد احتاط غاندي بقوله إنه «يخرج من ساحة الجهاد إذا آنس فيه بغضًا للإنكليز»، وإنه يجب أن نحب الذين تناوئهم ونكره ظلمهم وجورهم: «أبغض الشيطانية وأنت تحب الشيطان.» لكن هذا مما يَدِقُّ على أفهام العامة، وكلما كان زعماء الحركة يُذكِّرون في كل مؤتمر بفظائع الإنكليز وعدم وفائهم، وبمذابح البنجاب والخلافة، كانت الأحقاد تتجمع وراء السد، ويا للمصيبة إذا السد انفجر! ولما ترأس غاندي في أغسطس ١٩٢١ حريق الأنسجة الأجنبية ببمباي، رادًّا توسلات أندريوس، صديق تاغور، في مقالته «الهدم وقيمته الأخلاقية» كان يعتقد أنه بهذا «يصرف ضغينة الشعب عن الأناس إلى الأشياء.» لكنه لم يسمع الضغينة تقول في سرها: «أجل! الأشياء أولًا، والأناس بعد ذلك.» ولم يُقدِّر أن الشعب في هذا البلد نفسه (بمباي) بعد أقل من ثلاثة أشهر سيزهق نفوسًا. إن غاندي طاهرٌ قديس، خلوٌ من الشهوات الحيوانية الرابضة في صدر الإنسان، فهو لا يفكِّر بأنها هنا، تصغي إليه وتلقف أقواله، أما تاغور فكان أبصر بالعواقب، وقد بدت له غفلة دعاة اللامعاونة الذين كانوا لا يفتئُون يُذكِّرون العامة بسيئات أوروبة دون قصدٍ سيئ، داعين إلى اللاعنف، بينما هم في الحقيقة يُشربون

اليومي، كذلك كان المسيح لا يفرق بين اليهود والوثنيين، ولكن يُلزمهم جميعًا رياضة أخلاقية واحدة، وهذا ما يتوخاه غاندي، وهنا ضيق دائرته، لا بالقلب، وقلبه رحب كقلب المسيح، بل بروح الزهد الفكري والتجرد المعنوي (كذلك كان أمر المسيح). إن غاندي عالمي من طراز القرون الوسطى، نحن نجلُّه، لكننا مع تاغور.

روح الشعب سمَّ الحمَّى التي ستعقب حتمًا أشد العنف. لم يكن هذا ليخطر ببال هؤلاء الحواريين الذين لا يجدون أثرًا للعنف في قلوبهم، بيد أن من يقدم على عمل عام ينبغي له أن يصغي إلى قلوب الناس، لا إلى قلبه. حذارِ من الشعب! إن وصايا غاندي الأخلاقية لا تكفي لكبح جماحه، وقد لا يكون ثمة إلا وسيلة واحدة، بها يطيع العامة غير مترددين، هذا الإمام الهندي ويعملون بدستوره الصارم: أن يسلِّم بأنه إلهٌ كما يرجو في أقصى ضميرهم أولئك الذين يمثلونه في صورة «شري كرشنا». لكن صدْق غاندي وضِعته لا يأذنان بذلك.

إذًا فلم يبقَ إلا الصوت الفذ يرسله أطهر الناس نفسًا، فيعلو على زمجرة هذا الأفيانوس البشري. حتَّامَ يظل قادرًا على إسماع صوته؟ إنها لفترة عظيمة مفجعة!

الفصل الرابع

في عام ١٩٢١ خطا الجهاد خطًى سريعة، وكانت السنة من بدايتها إلى نهايتها ملأى بالعثرات والهزاهز العنيفة، حتى إن غاندي نفسه لم يسلم من غوائلها.

كانت الثورة في اختمار، وكانت فظاظة الحكومة في قمعها تقرِّب أجل اضطرامها، فانفجرت في ماليغاؤن من مقاطعة ناسيك فتنٌ دامية، ونشبت في جيريديه من مقاطعة البيجار قلاقل، وفي أوائل مايو ١٩٢١ حدثت في أسَّام حوادث أعظم خطرًا، فإن ١٢ ألفًا من «الكولي» الفلاحين أضربوا عن العمل في مزارع الشاي، وبينما هم يهجرونها هاجمهم «الغوركا» الذين في خدمة الحكومة، وأضرب موظفو الخطوط الحديدية والبواخر في البنغال الشرقي إضرابًا عامًّا دام شهرين، احتجاجًا على أعمال الحكومة. وكان غاندي لا يزال عاملًا على التوفيق بين الفريقَين، فكانت بينه وبين نائب الملك اللورد ريدنغ، في شهر مايو، مقابلة طويلة عرض أثناءها وساطته بين الحكومة وبين الأخوَين علي، المتهمَين بإلقاء خطب يحضان فيها على استعمال العنف، فوعده أصدقاؤه المسلمون وعدًا صريحًا بأنهم لن يدعوا إلى العنف قط.

لكن هذا لم يضعف من شأن الحركة، واستمر العنصر الإسلامي في الهند سبَّاقًا إلى أجرأ الأعمال وأخطرها، وفي ٨ يوليو اجتمع مؤتمر الخلافة لجميع الهند، في كاراشي، فأعاد ذكر المطالب الإسلامية معلنًا «أنه لا يجوز لمسلم شرعًا أن يخدم في الجيش أو يساعد على التجنيد» متوعدًا الحكومة إذا حاربت حكومة أنقرة بتقرير العصيان المدني والجمهورية الهندية في دورة نهاية السنة لمؤتمر جميع الهند. وفي ٢٨ يوليو أعلنت لجنة مؤتمر جميع الهند المجتمعة في بمباي (أول لجنة منتخبة وفقًا للدستور الجديد) أنه يجب على الهنود كافة أن يقاطعوا ولي العهد «البرنس دوغال» الذي يزور الهند عما قريب، وقررت مقاطعة الأنسجة الأجنبية تمامًا قبل حلول ٣٠ سبتمبر، وحثت على العناية بالنسج الوطني جاعلة

له نظامًا خاصًّا، وحضت على ترك المسكرات رغم عضد الحكومة لتجارها وحمايتها إياهم، لكن المؤتمر كان أكثر أناةً وأرشد من مسلمي الخلافة، فذم الفتن ومحدثيها، وصرف مؤقتًا عن العصيان المدني، ووسع نطاق الدعاية إلى اللاعنف.

وفي أغسطس أثار الموبلاه فتنة هوجاء استمرت بضعة شهور، فهمَّ غاندي ومولانا محمد علي بالرحيل من كلكلتا إلى مالابار لتسكين الفتنة، لكن الحكومة لم تأذن بذلك، وألقت القبض في سبتمبر على مولانا محمد علي وأخيه مولانا شوكت علي وكثير من أعيان المسلمين بتهمة الحض على العصيان المدني الذي قرروه في مؤتمر الخلافة. حينئذٍ ثبَّتت لجنة الخلافة المركزية في دلهي ذلك القرار، وصدقته بقوةٍ مئاتٌ من المجامع الإسلامية، وفي ٤ أكتوبر أعلن غاندي تكافله وإخوانه المسلمين، ونشر بالاتفاق مع خمسين من كبار أعضاء المؤتمر بيانًا يجهر فيه بحق كل وطني أن يبدي رأيه في اللامعاونة، ويؤكد أنه لا يجدر بالهندي أن يخدم، سواء بصفته موظفًا مدنيًّا أو عسكريًّا، الحكومة التي أحطت الهند من الوجهة الأخلاقية والاقتصادية والسياسية، وينادي أن الانفصال عنها فرضٌ على الهنود كافة. حُوكم الأخوان علي في كاراشي وحُكم عليهما وعلى شركائهما في التهمة بالحبس الشديد مدة سنتين، فكان جواب الهند على هذا الحكم حماسة أعظم من ذي قبل، وفي ٤ نوفمبر صدَّقت لجنة مؤتمر جميع الهند المنعقدة بدلهي بيان غاندي. وهكذا خطت اللجنة الخطوة الفاصلة، فأجازت لكل مقاطعة إنفاذ العصيان المدني بدءًا برفض الضرائب، ملقيةً عليها تبعة أعمالها، وشرطت أن يسلم العصاة صراحةً ببرنامج السوادشي واللامعاونة ويعملوا به، ومن مواده الغزل اليدوي وعهد اللاعنف، فاللجنة إذًا عملت، بإرشاد غاندي، على التوفيق بين الثورة وبين روح النظام وشريعة التضحية، ولإظهار هذه الشريعة بوضوح، أنبأت القائمين بالعصيان المدني وعائلاتهم أنه لا ينبغي لهم أن يتَّكلوا على معونة المؤتمر المالية.

كان العصيان الأكبر على وشك الابتداء لما نزل ولي العهد (البرنس دوغال) بمباي في ١٧ نوفمبر، فأنفذت الطبقات الوسطى والدنيا أمر الإضراب عن استقباله، لكن الأغنياء والبارسي وكبار الموظفين لم يحسبوا لذلك الأمر حسابًا، فأهانهم الغوغاء غير راحمين النساء، واتسع نطاق الفتنة بسرعة، فهُدِّمت بيوت وسقط جرحى وقتلى، وهو الانفجار الوحشي الوحيد الذي حدث في الهند، حيث أُدِّي الحرتال (الاغتصاب الديني) الذي قُرِّر، حق أدائه، في أمنٍ وسلام. لكن غاندي على حد قوله كان «كمن أُصيب بسهم في أحشائه»، فلما بلغه أول الأنباء عن القلاقل خف إلى موضع حدوثها، فهتف له الثائرون، فزاد هذا

في عذابه، وقرَّع الجماهير بشدة آمرًا إياهم بأن يتفرقوا، وقال إن للبارسي إذا شاءوا، أن يحتفوا بالأمير، وليس ثمة ما يبرر هذه الأعمال العنيفة المنكرة، فسكت الناس، لكن الفتنة اضطرمت في أمكنة أخرى. إن عناصر الشر خرجت من مكامنها في بطن الأرض، وليس من المستطاع أن يُعاد إلى الرشد في لحظة واحدة ٢٠ ألف رجل أُثيروا، ومع ذلك فإن الفتنة ظلت محصورة، وإن أقل أيام الثورة في أوروبة ليربو على تلك الفتنة الهندية إضرارًا، فأرسل غاندي إلى أهل بمباي وجماعة اللامعاونة نداءً حزينًا تناقلته الصحف جميعًا، وأعلن أن أشباه هذه الحوادث تجعل العصيان جماعةً، من المستحيلات في الحاضر، وأرجأ إنفاذ الأمر الآنف إلى أجل غير مسمًّى، وقصاصًا لنفسه على فظائع بني قومه فرض عليها الصوم الديني أربعًا وعشرين ساعة كل أسبوع.

كان ذعر أوروبيي الهند من اضطرابات بمباي أقل من ذعرهم لإجماع الهنود على الحرتال الصامت إجماعًا معجبًا، فلجوا في حض نائب الملك على أن يعمل، فاتخذت حكومات المقاطعات تدابير قاسية لم تراعَ فيها للقانون حركة، وأُخرج قانون قديم سُنَّ سنة ١٩٠٨ لمعاقبة الفوضويين والجمعيات السرية، فاتخذته الحكومة ذريعة للقضاء على جماعات متطوعة المؤتمر والخلافة، وأُلقي القبض على آلاف من الخلق، فكان الجواب أن آلافًا من المتطوعة الجدد سجلوا أسماءهم في القوائم العامة، وصدر الأمر إلى لجان المقاطعات بأن تنظم فرق المتطوعة تنظيمًا متماثلًا، وقُرِّر أن يكون الرابع والعشرين من ديسمبر، وهو يوم زيارة الأمير كلكتا، حرتالًا. وفي اليوم الموعود اجتاز ولي العهد كلكتا وهي قفرٌ من أهلها.

في تلك الساعات التي كأنها تضمر الثورة، افْتُتح بأحمد آباد مؤتمر جميع الهند الوطني، فكان له جلال المجلس الفرنسي عام ١٧٧٩، جلاله المؤثر، وكان رئيس المؤتمر قد سُجن يومئذٍ فأوجز الأعضاء في الجدل، وأعاد المؤتمر الكرة مقرًّا مذهب اللامعاونة، حاثًّا الوطنيين جميعًا على التطوع كي يُسجَنوا، داعيًا الشعب الهندي إلى عقد اجتماعات في كل مكان، معلنًا إيمانه بالعصيان المدني الذي يوازي بعظيم فعله العصيان المسلح، ويفضله من الوجهة الإنسانية، ونصح بتنظيمه متى أصبح السواد الأعظم مشربًا أساليب اللاعنف. وكان المؤتمر يعلم أن أغلب أعضائه سوف يُلقى القبض عليهم في نهاية الدورة، فخَلع على غاندي سلطته بتمامها، أي جعله حاكمًا بأمره، وترك له الخيار في تعيين خلفه، وهكذا خُص الزعيم بالسلطان المطلق على سياسة الهند غير مقيد إلا بعدم إدخال تحويرٍ ما على قانون الإيمان الوطني، وبأن لا يعقد صلحًا مع الحكومة إلا برضاء لجنة المؤتمر،

وكان فريق من الأعضاء قدموا اقتراحًا مؤاده وجوب استعمال العنف لنيل الاستقلال التام بأسرع ما يمكن، لكن الأغلبية ردته محافظة على مبادئ غاندي.

وأظهرت الأسابيع التي تلت الحماسة الدينية التي تملكت الهند من أقصاها إلى أقصاها، فتقدم ٢٥ ألف رجل وامرأة إلى السجون جذلين مستبشرين.

وتأهب بعدهم آلاف آخرون لإثبات صدق إيمانهم، وهمَّ غاندي للمرة الثانية بأن يصدر أمر العصيان المدني جماعةً، وكان رأيه أن يبدأ بلدٌ مختار جدير بأن تقتدي به سائر البلدان، فيه وجد مذهبه أرضًا خصبة، نعني باردولي من مقاطعة بمباي،[١] فأنبأ غاندي بذلك نائب الملك في كتاب مفتوح (٩ فبراير ١٩٢٢) هو من باب المجاملة، لكنه أيضًا إعلان حرب صريح، يقول فيه: إنه زعيم الحركة المسئول وإن باردولي هي الفرقة الأولى من جيش العصيان الهندي على الحكومة التي اعتدت اعتداءً فظًّا على حرية القول والاجتماع والنشر.

ويمهل غاندي اللورد ريدنغ سبعة أيام ليقوِّم اعوجاج سياسته وإلا فقد أُصدر الأمر: ستبدأ الثورة.[٢]

ما كادت تُرسل الرسالة إلى نائب الملك؛ وإذ بفاجعة تحدث في «شوري شورا» من أعمال غوراخبور، جاءت أفظع من كل ما سبق، كانت الجماهير تسير في موكب، فهاجمتها الشرطة فقابلها الأهلون بالمثل، فأصلتهم الشرطة نارًا حامية ثم اعتصمت في الطانا[٣] فأحرقته الغوغاء، وعبثًا سأل المحصورون رحمة وغفرانًا، فقد قُتلوا وأُحرقوا. إن رجال الشرطة هم البادئون بالشر، ولم يشترك في تقتيلهم متطوع واحد من متطوعة اللامعاونة. يقدر غاندي إذًا أن يبرأ منهم، لكنه أصبح حقًّا وجدان الهند، فجريمة يقترفها أي هندي تلطخه هو بالدم، كأنه حمَّل نفسه آثام أمته قاطبة. كان وقع هذه الحادثة موجعًا، فوقف للمرة الثانية الحركة التي أمر بها من قبلُ. إن الموقف أشد حراجة الآن منه بعد فتنة بمباي، ذلك أنه بعث منذ بضعة أيام بإنذاره إلى نائب الملك، فكيف يسترده اليوم دون أن يعرض

---

[١] ١٤٠ قرية سكانها ٨٧٠٠٠ نسمة.

[٢] أنبأت جريدة «الهند الجديدة» الأمة الهندية بهذا الإنذار قائلة: إنه لن يستعاد الأمر الصادر إذا لم يجب نائب الملك على رسالة غاندي، وإن العصيان المدني سوف يتم على كل حال، حتى لو أن الأغلبية عدلت عنه الآن.

[٣] مركز الشرطة.

نفسه للسخرية؟ إن الكبرياء (ويلقبها غاندي بالشيطان) تسول له أن لا يفعل، لكن هذا على الضد يشدد عزيمته.

وفي ١٦ فبراير ١٩٢٢ ظهرت في «الهند الجديدة» وثيقة من أعجب وثائق هذه السيرة الرائعة، هي بمثابة اعتراف على رءوس الأشهاد، وكان أول ما صعد من أعماق ذله وضراعته كلمات تهليل وحمدٍ لله على أنه وضعه وأذله: «لقد كان الله بي رحيمًا، جد رحيم، فأنذرني مرةً ثالثة بأن الهند لما تحصل على جو الحق واللاعنف الذي به، وبه وحده نقدر أن نبرر العصيان المدني جماعةً، العصيان الذي يصح نعته بالمدني؛ لأنه رفيق وضيع رشيد يقوم به الناس طوعًا، ولأنه محب لا يضمر سوءًا ولا يحمل حقدًا. أنذرني مرةً أولى سنة ١٩١٩ لما ابتدأ الهياج حول قانون رولات، لقد ضلت يومئذٍ أحمد آباد وفيرامغام وخدا، وضلت أمرتسار وقاسور، فانقلبتُ على عقبي وسميت خطيئتي غلطة حسابية حملايائية، وأذللت نفسي أمام الله والناس، لم أقف العصيان المدني جماعة فحسب، بل وقفت أيضًا عصياني أنا، وفي المرة الثانية أنذرني بحوادث بمباي التي شاء الله أن أشهدها بعينَي رأسي ... فوقفت العصيان المدني الذي كنت اخترت باردولي لتبدأ به. كانت المهانة آنئذٍ أعظم لكنها أفادتني وأحسنت إليَّ. أنا على يقين من أن الوطن انتفع بهذا التأجيل؛ لأن الهند ظلت بذلك ممثلة الحقيقة واللاعنف، لكن المهانة هذه المرة كانت أشد وقعًا ... إن الله تكلم في شوري شورا بجلاء ... إن عنف الغوغاء في الساعة التي تريد الهند أن تجلس على عرش الحرية باللاعنف، لدلالة شؤم مؤسفة. يجب أن يسيطر جماعة اللاتعاون على عنف الشعب، ولن يتيسر لهم هذا إلا متى سيطروا على رعاع الهند أجمعين.»[٤]

إذًا فهو في ١١ فبراير جمع بباردولي لجنة المؤتمر التنفيذية وأطلعها على حيرته وقلق نفسه. إن عدة من رفاقه لم يكونوا وإياه على وفاق، لكن الله أنعم عليه، كما يقول، بأن لقي منهم هذا القدر من المسامحة والاحترام. لقد اكتنهوا أسباب حيرته ورضوا بناءً على إلحاحه أن يؤجلوا العصيان المدني، داعين الجمعيات المنظمة إلى إيجاد جوٍّ صافٍ من اللاعنف أولًا، ثم يقول غاندي: «أعلم أن عملي هذا لن يُعد من الرشد في السياسة، لكنه رشد من ناحية الدين. إن الوطن يستفيد من ضراعتي واعترافي بخطئي، والفضيلة الفريدة التي تتوق إلى اكتسابها نفسي هي فضيلة الحق واللاعنف. لست أدعي قط قوى ومزايا معجزة، ولا هوى لي في شيء من ذلك. إني أحمل جسدًا كجسد أضعف الخلق في تعرضه للفساد والضلال، وإن

[٤] مقالة «جناية شوري شورا».

لخدماتي حدًّا لا تتعداه، لكن الله بارك فيها حتى اليوم رغم نقائضها. إن الإقرار بالخطأ هو كضربة مكنسة، وأحس الآن أني أقوى من ذي قبل لأني أقررت بخطئي، ولتستفيدن قضيتنا من نكوصها هذا ... لم يبلغ رجل غاية قط بإصراره على الزيغ عن السبيل الأقوم ... يردون عليَّ قائلين أن لا صلة لجناية شوري شورا بالعمل المَنْوي في باردولي، أنا لا يداخلني ريب في ذلك؛ لأن أهل باردولي أكثر الهنود حبًّا بالسلام، لكن باردولي ليست سوى نقطة، ولن يُوفَّق عملها ما لم يكن بينها وبين سائر أجزاء الهند تناسب كلي. إن حَبة من السليماني في جرة حليب تسممها ... إن شوري شورا سم زعاف، وليس هذا مثلًا فذًّا، بل هو عارضٌ متفاقم من عنف العامة المنتشر هنا وهناك ... إن العصيان المدني الصحيح لا يكون مصحوبًا بأقل هياج، هو تأهبٌ للعذاب الصامت، فعله عجيب وإن يكن رفيقًا لا يكاد يُدرك. إن فاجعة شوري شورا إصبع دالة على طريقنا، فإذا كنا نريد أن لا يخرج العنف من اللاعنف فيجب أن ننقلب على أعقابنا معجلين لنرجع جو السكينة في وطننا، وأن لا نفكر قط بالعودة إلى العصيان المدني جماعة قبل أن نتثبت من أن السلام سيظل سائدًا رغم كل شيء ... لخصمنا أن يتهمنا بالجبن! فخيرٌ لنا أن يُساء الظن بنا من أن نخون عهد الله.»

وقد شاء الرسول أن يكفر هو عن الدم الذي أراقه آخرون: «يجب أن أطهر نفسي، يجب أن أكون بحالة أستطيع معها أن أحسن تسجيل أخف التغيرات الطارئة على الجو المعنوي الذي يحيط بي،[٥] يجب أن أكون في صلواتي أصدق وأكثر خشوعًا. ليس أبلغ في تزكية النفس من الصوم الحق، به تتجلَّى ذات المرء بتمامها، ويسيطر الروح على الجسد ...»

لهذا قضى غاندي على نفسه، مُشهدًا الملأ، أن يصوم خمسة أيام صيامًا متواصلًا، وليس لأحد أن يقتدي به، يجب أن ينفرد بمعاقبة نفسه. إنه كان جرَّاحًا غير ماهر، فإما أن يعتزل وإما أن يكتسب خبرةً أحكم وأثبت. إن صيامه توبة وقصاص على السواء، له ولأصحاب شوري شورا الذين أثموا واسمه على ألسنتهم. إن غاندي يود لو يتعذب وحده من أجلهم، لكنه يشير عليهم بأن يسلموا أنفسهم للحكومة ويعترفوا بذنبهم، ذلك أنهم نالوا القضية التي أرادوا أن يخدموها، بشرٍّ عظيم: «أحب أن أحتمل كل المهانات، وكل

[٥] لينتبه القراء إلى هذا النور المرسل على ما في نفس غاندي من قوة خفية، تلك النفس التي ترتسم عليها خلجات الشعب الهندي جميعًا.

أنواع العذاب، والنفي والطرد بل الموت أيضًا؛ لأصرف حركتنا عن أن تصبح مظهر عنف أو ذريعة إلى العنف.»

قَلَّ أن تجد في تاريخ الوجدان البشري صفحات شريفة بهذا المقدار. إن قيمة ذلك العمل المعنوية لا تُقدَّر، لكنه من الوجهة السياسية يدعو إلى الحيرة، وقد اعترف غاندي نفسه بأن عمله «من الوجهة السياسية يصح عده خرقًا وبُعدًا عن الصواب»، فإن من الخطر أن تشد لوالب الأمة، فهي تلهث ترقبًا للعمل المقرر، وأن ترفع ذراعًا لإصدار الأمر، حتى إذا تحركت هذه الآلة الضخمة، وقفتها، لا مرةً واحدة بل ثلاثًا، إنك بهذا توهن لوالب الآلة، وتحطم اندفاع الأمة.

ولما اجتمعت لجنة المؤتمر بدلهي في ٢٤ فبراير ١٩٢٢ لم يتوصل غاندي إلى حملها على تصديق القرارات المتخذة في باردولي إلا بعد معارضة شديدة، ووقع الخُلْف بين جماعة اللامعاونة. غاندي يرى من الواجب أن يبالغ في تنظيم الحركة قبل متابعة السير، وقد جاء بخطة اختطها لتعمل الأمة بها، لكنَّ نفرًا كثيرين من رفاقه كان يغيظهم هذا البطء والتأجيل، فاحتجوا على تسويف حركة العصيان، قائلين إن فيه قتلًا لحماسة الأمة، وقدَّم فريق من الأعضاء اقتراحًا بتأنيب اللجنة التنفيذية وإلغاء الأوامر التي أصدرتها، ومع ذلك فقد فاز غاندي، إلا أنه كابد ألمًا شديدًا، ولم ينخدع بالأغلبية التي اتبعته؛ لأنه لم يثق في صدقها، وما أكثر الذين عضدوه بأصواتهم، فإذا ولى ظهره سموه حاكمًا بأمره (ديكتاتورًا)، كان يعلم أنه ووطنه على خلاف، قال ذلك بصراحته المعهودة في ٢ مارس ١٩٢٢: «إن في الأغلبية كثيرًا من نزعات العنف الخفية، سواء الصادرة عن فكر وروية أم التي لا روية فيها؛ لذلك دعوت الله أن يعاقبنا بخسرانٍ مبين. قُدِّر لي أن أكون دائمًا في أقلية، ففي أفريقية الجنوبية بدأت والإجماع في جانبي، ثم نزلت إلى أقلية مؤلفة من ٦٤، فمن ١٦ صوتًا، ثم صعدت كرة أخرى إلى أغلبية عظيمة. إن خير الأعمال وأوطدها قد تم في بيداء الأقلية. إني أخاف الأغلبية وأكره عبادة السواد الأعظم الذي لا رأي له ولا حكم، وإني لأجد الأرض أثبت تحت قدمي إذا بصقوا عليَّ ... لقد حذرني صديق لي ناصحًا بأن لا أستغل «ديكتاتوريتي»، ما أبعدني عن هذا! بل إني لأتساءل عما إذا كنت غير ممكِّن الناس من «استغلالي» أنا، وأقر بأني أخاف اليوم هذا أكثر من قبل. لا سبيل إلى النجاة إلا بعدم استحيائي، وقد أسمعت رفاقي في المؤتمر أن طبعي لا يُقوَّم، فكلما زلت الأمة لا بد لي من الإقرار بزلاتها. لا سلطان عندي في هذه الدنيا إلا «للصوت الخافت الصامت» الذي في باطن كل منا، ولو أُكرهت على أن أكون في الأقلية المؤلفة من واحد لما خشيت أن أكون

في هذه الأقلية القانطة. تلك هي وحدها خطة الصدق عندي. أصبحت اليوم أشد حزنًا، وأحسبني أعقل أيضًا. أرى أن اللاعنف عندنا سطحي، فنفوسنا تشتعل سخطًا، والحكومة تزيد في ضرامها بالأعمال الخرقاء، حتى ليصح القول إنها تود لو ترى هذه البلاد بأسرها مغطاة بحوادث القتل والحرق والنهب؛ لتدعي بعد ذلك أنها وحدها قادرة على قمعها. يبدو لي أن اللاعنف عندنا ناشئ عن عجزنا، فكأننا نضمر الرغبة في الانتقام لأنفسنا متى تسنح الفرصة، فهل يُرجى خروج اللاعنف الاختياري من هذا اللاعنف الاضطراري الذي في ضعاف عاجزين؟ أليس ما أحاوله تجربة باطلة؟ وبعدُ فإذا لم يسلم، حين ينفجر الغيظ، رجل واحد، وإذا بسطت بالأذية كل يدٍ، فما يجدي إذًا بعد هذه الكارثة صومي ولو مت جوعا؟ إذا كنتم غير قادرين على اللاعنف، فاختاروا العنف صراحًا ولكن من غير رياء.[٦] إن الأغلبية تزعم أنها راضية باللاعنف ... فلتعرف إذًا مسئوليتها! يجب عليها اليوم أن تؤجل العصيان المدني وأن تقوم بعمل إنشائي أولًا، وإلا غرقنا في خضمٍ لا يُدرك غوره ولو وهمًا ...»

والتفت نحو الأقلية قائلًا: «إنكم لا ترضون اللاعنف، فاخرجوا إذًا من المؤتمر. ألفوا حزبًا جديدًا. انشروا على الملأ مذهبكم، وللأمة الخيار بيننا وبينكم ... ولكن لا لبس ولا إبهام، كونوا صرحاء!»

في هذه الكلم الشديدة حزن مرٌّ، لكنَّ فيها حزمًا ورجولة، هي ليلة جبل الزيتون؛ إذ عما قريب يُلقى القبض على غاندي، ومن يدري، فلعله كان في أقصى ضميره يرجو ذلك كأنما فيه نجاته.

كان ينتظر هذا الحادث من زمنٍ طويل، وقد احتاط له منذ ١٠ نوفمبر ١٩٢٠، فأملى إرشاداته إلى الأمة يوم لا تجده الأمة في مقالة «إذا حُبست»، وأعاد الكَرة في مقالة أخرى (٩ مارس ١٩٢٢) لما لهج الناس بنبأ القبض عليه، يقول إنه لا يخشى عنف الحكومة، لا يخشى سوى أمر واحد: عنف الشعب، فإن هذا يشينه هو، «ليكن يوم حبسي يوم عيد وفرح للشعب! تحسب الحكومة أنها متى تسجن غاندي ينقضِ أمرها مع الهند. أثبتوا لها عكس

[٦] اتضح لغاندي أن جزءًا من أغلبيته التي تؤيد اللاعنف كان يراه وسيلة أو خدعة سياسية تغطي التأهب للغلبة بالعنف، ويقول غاندي: إن هؤلاء يحدثون بكلمات «محلاة» عن «القيام بضربات غير عنيفة». لقد فطن غاندي إلى الخطر الجسيم الذي أعرفه تاغور من زمن طويل، وكاد يتميز غيظًا، فهو الآن يشهره ويعيِّر أصحابه بأشد مما فعل تاغور.

ذلك، ولتزنْ قوة الشعب.» إن أعظم تكريم يكرم الشعب به غاندي هو أن يظل محافظًا على السكينة التامة. إن غاندي ليبتئس إذا رأى الحكومة تحجم عن القبض عليه حذرًا من ثورة دامية. إذًا على الشعب أن يظل ساكنًا، وأن لا يقف سير أعماله، وأن لا يتجمهر ولا يعقد اجتماعات قط! ولكن لتُقفل المحاكم، ولتُهجر دواوين الحكومة، وليُنفَّذ برنامج اللامعاونة بتمامه، في هدوء وانتظام، فإذا سلكت الأمة هذه السبيل نُصرت، وإلا سُحقت.

وبعد أن أخذ غاندي عدته انتقل إلى عزلته العزيزة في أشرم سبار ماتي (على مقربة من أحمد آباد) ليعتكف بين صحابته الأحباء وانتظر قدوم الذين سيلقون القبض عليه، وكانت نفسه تتوق إلى السجن، لعل إيمان الهند يتجلى في غيبته بأوضح مما تجلى في حضرته: «وهو واجد ثمة راحة قد يكون حقيقًا بها.»[٧]

وفي مساء ١٠ مارس، قُبيل وقت الصلاة، وصل رجال الشرطة، وكان الأشرم قد نُبئ بقدومهم، فأسلم المهاتما نفسه، وفي الطريق التقى بصديقه المسلم مولانا حسرت مهني الذين جاء من مكان بعيد ليسعده الحظ بمعانقته، واقْتِيد غاندي ومعه بانكر ناشر جريدة «الهند الجديدة»، وأُذن لامرأته أن تصحبه حتى عتبة السجن.

وظهر يوم السبت في ١٨ مارس افتُتحت «القضية الكبرى»[٨] أمام قاضي مقاطعة أحمد آباد، فكانت المحاكمة شريفة جدًّا: لقد تبارى القاضي والمتهم في مضمار الأدب والكياسة وكرم النفس، ولم تصعد إنكلترة خلال ذلك الجهاد إلى أسمى من هذا الإنصاف، فإن القاضي س. ف. برومسفيلد كفَّر يومئذٍ عن كثير من خطايا الحكومة. إن صحف أوروبة نقلت طرفًا من وصف المحاكمة الذي نشره أصدقاء غاندي، وبلغت فرنسة أصداءٌ منه؛ لهذا نكتفي بذكر خلاصته.

لماذا عمدت الحكومة إلى القبض على غاندي؟ علامَ، بعد أن ترددت عامَين، اختارت لإصدار أمرها حين غل غاندي ثورة شعبه وأثبت أنه الحائل الوحيد دون استعماله الشدة؟ هل أضاعت رشدها؟ أم هل شاءت أن تحق كلمة غاندي الرهيبة: «يظهر أن الحكومة تود أن ترى هذه البلاد مغطاة بحوادث القتل والحريق والنهب لتكون لها ذريعة إلى قمعها.» والحق أنها كانت في موقف ضنك: كانت تجل غاندي وتخشاه على السواء، وكانت ترغب

---

[٧] ٩ مارس ١٩٢٢.

[٨] التجربة العظمى، جريدة الهند الجديدة، في ٢٣ مارس ١٩٢٢.

في رعاية جانبه، لكن غاندي لم يرعَ جانبها قط. إن المهاتما يستنكر العنف، ولكن لا عنف أقرب إلى معنى الثورة من «لا عنفه»، ولقد نشر أيام كان يعارض في العصيان المدني جماعة، عشية مؤتمر دلهي في ٢٣ فبراير، إحدى مقالاته الأبلغ توعدًا للسلطة البريطانية، يومئذٍ صُفعت الهند ببرقية وقحة من اللورد بركنهيد والمستر مونتاغو،[٩] فهب غاندي، وقد أحفظته الإهانة، يقابل ذلك التحدي بمثله: «لا صلح مع الإمبراطورية، ما زال الأسد البريطاني يحرك عند وجوهنا براثنه الدامية! إن الإمبراطورية البريطانية القائمة على استغلال منظم لشعوب الأرض الضعيفة مادةً، وعلى استطالة ظاهرة بالقوة البهيمية، لا يمكن أن تدوم إذا كان هناك إلهٌ عادل مسيطر على الوجود. لقد آن للشعب البريطاني أن يفهم أن الجهاد الذي بدأ منذ سنة ١٩٢٠ هو جهاد إلى النهاية سواء استمر شهرًا أم عامًا أم شهورًا أم أعوامًا ... أسأل الله أن يهب الهند من الضعة والقوة ما تستطيع به أن تجاهد إلى النهاية من غير ما عنف، ولكن الصبر على هذه التحديات الوقاح أمرٌ مستحيل ...»

على هذه المقالة ومقالتَين أحدث منها[١٠] بُني الاتهام. اتُّهم غاندي بأنه «حض على مقاطعة وكره وازدراء حكومة صاحب الجلالة، الحكومة التي أقرتها القوانين.» ولم يكن له محامٍ، فرافع مسلِّمًا بكل ما اتُّهم به.

وادعى نائب بمباي العام السر ج. ت سترنجمان أن المقالات الثلاث التي بُني عليها الاتهام ليست فريدة في بابها، بل هي شطر من حملة على الحكومة مستمرة منذ عامَين، وأثبت ذلك بالشواهد. إنه مصدق بمزايا غاندي السامية، لكن الضرر الناشئ عن تلك المقالات هو لهذا أعظم، وعزا إلى غاندي حوادث بمباي وشوري شورا الدامية. لا ريب أن غاندي كان يدعو إلى اللاعنف، لكنه كذلك كان يغري بكره الحكومة، فهو مسئول إذًا عما أتاه العامة من أعمال العنف.

[٩] «إذا أصبح كيان إمبراطوريتنا معرضًا للخطر، وإذا أُريد منع الحكومة البريطانية عن القيام بواجباتها في الهند، وإذا خُيِّل إليهم أننا نفكر بالخروج من الهند، فإن الهند إذًا تتحدى — وعبثًا تتحدى — أقوى أمم الأرض عزيمة، وسنرد هذا التحدي بما يقتضي من الشدة.»

[١٠] في ١٩ سبتمبر و١٥ ديسمبر ١٩٢١، موضوع المقالة الأولى التهمة الموجهة إلى الأخوين علي، والمقالة الثانية كُتبت جوابًا على خطبة مغيظة ألقاها اللورد ريدنغ وفيها إعلان «الحرب إلى النهاية»: «نريد أن نقلب الحكومة وأن نكرهها على الخضوع لإرادة الأمة، نحن لا نسأل رحمة ولا رجاء لنا في ذلك ...»

استأذن غاندي بالكلام. إن مخاوفه وقلق نفسه في الأسابيع الأخيرة وشكوكه في أصالة القرارات التي اضطر أن يصدرها وفي آثار هذه القرارات في وجدان أمته، قد تلاشت جميعًا. عادت الطمأنينة إلى نفسه، فهو راضٍ بكل ما حدث وبكل ما قد يحدث، كأنها ضرورة يأسف لها ولكن يجب عليه أن يحملها، وصرح أنه والنائب العام على وفاق. أجل، إنه مسئول، هو مسئول تمامًا، لقد نفَّر من الحكومة منذ زمن أبعد مما ذُكر في بيان النيابة العامة. هذا هوًى في نفسه شديد، وهو حقيق بأن يُلام من أجل «جرائم مدراس الإبليسية» و«تعديات بمباي الجنونية»:

«يحق للنائب العام أن يقول إنه كان يجب عليَّ، بصفتي رجلًا مسئولًا أوتي حظًّا كبيرًا من العلم والتربية ونال شطرًا عظيمًا من تجارب هذه الدنيا، أن أعرف نتائج أعمالي، فأنا كنت عالمًا أني كنت ألعب بالنار، وقد أقدمت على ذلك الخطر، وإذا أُطلق اليوم سبيلي عدت إلى مثله. في هذه الليالي فكرت مليًّا في الأمر، وشعرت في هذا الصباح بأني أخل بواجبي إذا لم أقل ما أقوله الآن. إني عملت ولا أزال عاملًا على اجتناب العنف. إن اللاعنف هو في عقيدتي أول وآخر بند، ولكن كنت بين خطتَين لا ثالث لهما: إما أن أخضع لنظام سياسي أرى أنه نال بلادي بشرٍّ لا يُعوَّض، وإما أن أقتحم خطر ثوران العاصفة، عاصفة الغضب الجنوني من ناحية أمتي. إذا علمت الحقيقة من شفتي، أعلم أن أمتي تُصاب بمسٍّ من الجنون أحيانًا، وهو مما يسوءني في سويداء قلبي؛ ولهذا أنا الآن هنا، راضٍ لا بعقوبة خفيفة بل بأثقل العقوبات، لست سائلًا رحمة ولا مدعيًا أحد الأسباب المخففة. أنا هنا لأطلب راضيًا مسرورًا، أشد عقوبة يُحكم بها على ما يعتبره القانون جرمًا متعمدًا، وما أعتبره أنا رأس واجبات الوطني. أيها القضاة، لا خيار: اعتزلوا أو عاقبوني!»

وبعد هذه الخطبة المرتجلة العصماء التي تعادلت فيها، على هذه الصورة الجليلة، وساوس الوجدان الديني وعزيمة الزعيم السياسي البطل، تلا غاندي تصريحًا مخطوطًا وجَّهه إلى الرأي العام في الهند وإنكلترة، يقول فيه إن من واجبه أن يعلمهم «لماذا، بعد أن كان داعيًا إلى التعاون، مواليًا للحكم البريطاني» أصبح «كارهًا له، حاضًّا بقوة على اللامعاونة». وأتى على وصف حياته السياسية منذ ١٨٩٣ ذاكرًا ما آلم نفسه بصفته هنديًّا من مساوئ النظام البريطاني وما بذله من جهود، خلال خمس وعشرين سنة، لإصلاح ذلك النظام، متوهمًا، مصرًّا على توهمه أن هذا ميسور دون أن تُفصل الهند عن الإمبراطورية. لقد كان حتى عام ١٩١٩ رغم ما لقيه من الكرب والفشل، داعية التعاون، لكن الإهانات والخطيئات جاوزت الحد، فلم يكفِ الحكومة أنها تركت الجناة دون قصاص، بل إنها

عمدت ساخرة بشعور الهند إلى إعلاء مناصبهم وزيادة رواتبهم والإنعام عليهم بالجوائز السنية. لقد قطعت الحكومة بيدها العرى التي تصل بينها وبين رعاياها. وتيقن غاندي الآن أن هذه الإصلاحات التي تقترحها الحكومة هي كذلك مهلكة للهند. إن الحكومة قائمة على استغلال الشعب، ولم يُسنَّ القانون إلا لهذه الغاية، وإنفاذ هذا القانون مسخرٌ لمصلحة المستغِل، وثمة نظام إرهابي بالغ في الدقة نافذ الفعل قد أذل الشعب وعوَّده الكذب والمداجاة. الهند دمارٌ وجوع وانحطاط، ويقول بعضهم إنها لن تصبح قادرة على حكم نفسها كالدومينيون إلا بعد أجيال. ليس في الحكومات التي جارت على الهند فيما مضى حكومة أساءت إليها بقدر ما أساءت إنكلترة. إن عدم مساعدة الجريمة واجب، وقد قام غاندي بواجبه، بيد أن العنف كان الوسيلة القصوى، فأعطى هو شعبه السلاح الأسمى: اللاعنف.

هنا بدأ البِراز الشريف بين القاضي برومسفيلد والمهاتما: «إنك يا مستر غاندي، إذ سلمت معي بالحوادث، قد جعلت مهمتي أيسر، لكنَّ النطق بحكم عادل هو من أصعب الأمور التي عُرضت لقاضٍ من القضاة. ليس لأحد أن يجهل أو يتجاهل أنك عند ملايين من الناس زعيم كبير ووطني جليل، بل إن الذين يفترقون عنك سياسيًّا، حتى هؤلاء يرون فيك رجلًا شريف الغاية سامي الفكر، عاش عيشة نبيلة بل قدسية ... ولكن يجب عليَّ أن أحاكمك بصفتك رجلًا خاضعًا للقانون ليس إلا ... والراجح أنه قل في الهند الذين لا يأسفون على أنك جعلت الحكومة في موقف لا سبيل منه إلى إخلاء سبيلك ... ولكن هكذا كان، سأبذل جهدي لموازنة ما يجب نحوك وما تقتضيه المصلحة العامة ...»

ثم سأل المتهم متأدبًا عن العقوبة التي يمكن أن يحكم بها عليه، وذكَّره بالحكم على طيلاق منذ اثني عشر عامًا: الحبس ستة أعوام ... «هل ترى هذا الحكم بعيدًا عن الصواب؟ ... وإذا أمكن فيما بعد، بتأثير الحوادث، إنقاص المدة، فليس إذًا أسعد مني بذلك ...»

ولم يقصر غاندي عنه في مضمار الكياسة وعلو النفس، فرأى أن في إشراك اسمه باسم طيلاق شرفًا كبيرًا له، وأن هذا الحكم أخف ما يستطيع قاضٍ أن يحكم به، وأنه لم يكن يرجو خلال هذه المحاكمة، أكثر مما لقيه من الإكرام وحسن الرعاية.[١١]

[١١] إن بانكر مدير «الهند الجديدة» الذي اقتدى بغاندي في هذه المحاكمة اقتداءً دينيًّا ووافق على كل أقواله، حُكم عليه بالحبس سنة واحدة وبغرامة مالية.

خُتمت القضية، ووقع صحابة غاندي على قدميه مجهشين في البكاء، ثم ودعهم غاندي مبتسمًا، وأُقفل باب السجن في سبارماتي عليه.[١٢]

[١٢] أعلمت السيدة كاستوريبي غاندي بهذا الحكم رجال الهند ونساءها في رسالةٍ حصيفة تدعوهم بها إلى التضافر على برنامج غاندي الإنشائي في هدوء وسكينة.

لم يُترك غاندي في سجن سبرماتي حيث كانت المعاملة حسنة، فنُقل إلى مكان خفي ثم إلى يرافادا في جوار بونا، وفي مقالة للمستر ن. س. هارديكر بعنوان «غاندي في السجن» نُشرت في «صحيفة الوحدة، ١٣ مايو ١٩٢٢» تأكيد أنه كان سجينًا في غرفة كغرف المجرمين العاديين بلا تمييز، وأن هذا قد أثر في صحته الضعيفة، لكننا نعلم أنه الآن أحسن حالًا وأنهم يأذنون له بأن يقرأ ويكتب.

وقد قال لي س. ف. أندريوس إن المهاتما ناعم البال في سجنه وإنه سأل أصدقاءه أن لا يزوروه وأن يحترموا عزلته، فهو يتزكى ويصلي إلى الله موقنًا أن عمله بهذا سيكون أبلغ أثرًا في القضية الهندية. ويؤكد س. ف. أندريوس أن حزب غاندي أصاب بهذا الحبس فائدة جليلة، فإن الهند أصبحت تؤمن بغاندي إيمانًا أقوى من قبلُ، ولا تزال تراه مجلى للإله شري كرشنا الذي تقول الأساطير إنه احتمل ظافرًا بلاء السجن. إن غاندي في سجنه قد حال دون الانفجار العنيف الذي كان يخشى حدوثه بأوكد مما لو كان حرًّا طليقًا.

الفصل الخامس

منذ ذلك اليوم لم يُسمع صوت هذا الرسول الجهوري. إن جسده مسدودٌ عليه من كل صوب كأنه في قبر، ولكن ما كانت القبور لتحبس الفكر، فإن روح غاندي الخفية لم تزل محييةً الجسم الهندي العظيم. السلام واللاعنف واحتمال العذاب، تلك هي الرسالة الوحيدة التي أتت من السجن، وقد سُمعت الرسالة وانتقل هذا الأمر من أقصى الهند إلى أقصاها. لو أن غاندي سُجن قبل هذا الحين بثلاث سنين لانغمست الهند في الدم. وإذ شاع في مارس ١٩٢٠ أنه قُبض عليه ثار الأهلون في أمكنة كثيرة، لكن حكم أحمد آباد تقبلته الهند بسكينة دينية، وتقدم إلى السجون آلاف من الهنود بفرح هادئ. اللاعنف واحتمال العذاب ... مثال عجيب دال على أن تلك الكلمة الإلهية قد نفذت إلى صميم روح الأمة.

كان السيخ، كما هو مشهور، من أشد الأقوام الهندية مراسًا وأكثرهم شغبًا، ولقد تجندوا جماعات في الحرب الكونية، ففي العام المنصرم شجر بينهم خلاف ذو خطر، وكان منشؤه تافهًا (في نظرنا نحن الأوروبيين). إن حركة تجديد ديني أخرجت بين ظهراني السيخ، فرقة العقاليين الذين يريدون تطهير المعابد من قُوَّام سيئي السمعة احتكروها ولا يرضون أن يخرجوا منها، ولأسباب قانونية أخذت الحكومة بناصرهم؛ إذ ذلك في أغسطس ١٩٢٢ بدأ استشهاد غورو-قا-باغ اليومي.[١] كان العقاليون اعتنقوا مذاهب اللامقاومة، ونزل ألف منهم في جوار المعبد وأربعة آلاف في «المعبد الذهبي» بأمرتسار، ففي كل يوم كان يغادر المعبد الذهبي مائة متطوع (أغلبهم في سن الجندية وكثير منهم اشتركوا في الحرب الكبرى) نذروا عدم استعمال العنف لا قولًا ولا عملًا، وأن يبلغوا غورو-قا-باغ

[١] غورو-قا-باغ معبد قائم على مسافة ١٠ أميال من أمرتسار.

أو يرجعوا محمولين مغمًى عليهم، وينضم إليهم ٢٥ عقاليًّا من الألف النازلين عند المعبد نذروا مثل ذلك النذر، وكانت الشرطة البريطانية تنتظرهم على جسر غير بعيد، بأيديهم رماح محددة الأطراف، وهكذا كنت تشهد كل يوم مشهدًا مروعًا. كتب أندريوس صديق تاغور والأستاذ في صانتينكتان فصلًا في وصفه[٢] لا ينساه قارئه. العقاليون بعمة سوداء مزينة بإكليل من أزهار بيضاء يتقدمون نحو جماعة الشرطة ويقفون قبالتهم على مسافة متر واحد، صامتين ساكنين مصلين، فيضربهم الشرطة بالرماح ضربًا مبرحًا، فيسقطون صرعى، ثم ينهضون إذا استطاعوا، ويعود الشرطة إلى ضربهم، وقد يُداسون بالأقدام حتى يُغمى عليهم، ولم يسمع أندريوس صرخة توجُّع، ولم يلحظ نظرة حنق، وحول الساحة مائة من الهنود يشهدون هذا المشهد وهم يصلون، على وجوههم أمارات الخشوع والألم وفي نفوسهم أشد الحزن، ويقول أندريوس إنهم «كانوا يذكِّرونه بظل الصليب»، وكان الإنكليز الذين يصفون هذا المشهد في صحفهم[٣] يظهرون العجب ولا يدركون له معنى، لكنهم كانوا يسلمون مكرهين بأن التضحية الجنونية نصرٌ مبين يصيبه جيش اللامعاونة، وبأن الشعب البنجابي مسحور مأخوذ بها. أما أندريوس الكريم النفس الذي هداه كماله الروحاني إلى فهم لغز الروح الهندي، فقد رأى هنا ما رآه غوتي في معركة فالمي، أعني فاتحة عهدٍ جديد: «بطولة جديدة مستفادة من الألم أشرقت على هذه الدنيا ... حرب فكرية جديدة ...»

ويظهر أن العامة كانوا أحفظ لمذهب المهاتما من الذين عُهد إليهم بقيادة الأمة: مر ذكر المعارضة التي قامت في لجنة المؤتمر بدلهي قبل سجن الإمام بعشرين يومًا، وقد ظهرت المعارضة مرة ثانية لما اجتمعت لجنة المؤتمر بلكنو في ٧ يونيو ١٩٢٢. كان الاستياء شديدًا من خطة الانتظار والإنشاء البطيء التي وضعها غاندي، وقويت الرغبة في سلوك سبيل العصيان المدني، فأُلفت لجنة للنظر فيما إذا كان استعداد البلاد للعصيان كافيًا، فطوفت اللجنة في الهند، وكان البيان الذي قدمته في فصل الخريف مُيئسًا، لا لإثباته فقط أن العصيان من المستحيلات في الزمن الحاضر، بل لأن نصف أعضاء اللجنة (وكلهم ثقات صادقو الإيمان) اقترحوا أن يُعدَل عن أساليب اللامعاونة الغاندية وعن مقاطعة الأعمال السياسية، وأن يُؤلف حزب سواراج (الحكم الذاتي) وسط مجالس الحكومة، وبكلمة

[٢] «جهاد العقالية» نُشرت في صحيفة «سوارايا» بمدراس وعلى حدة في ١٢ سبتمبر ١٩٢٢.
[٣] المانشستر غارديان الأسبوعي، في ١٣ أكتوبر ١٩٢٢.

وجيزة أن تصبح اللامعاونة معارضة برلمانية بالفعل، وهكذا كان مذهب غاندي يُهدم من أساسه، يهدمه دعاة العنف من ناحية والمعتدلون من ناحية أخرى.

لكن الهند احتجت على ذلك، وعاد المؤتمر الوطني الهندي المنعقد بغايا في آخر ديسمبر ١٩٢٢ إلى توكيد تعلقه الشديد بالإمام المضطهد وإيمانه الصحيح بمذهب اللامعاونة، فرد بـ ١٧٤٠ صوتًا ضد ٨٩٠ اقتراح الاشتراك بالمجالس التشريعية.[٤] وفي النهاية أجمعت الآراء على دوام الإضراب السياسي بتبديل طفيف في الأساليب المعمول بها، لكن المؤتمر رد اقتراحًا بمقاطعة السلع الإنكليزية خشية أن ينشأ عن ذلك خصومة طوائف العمال الأوروبية للقضية الهندية، وكان مؤتمر الخلافة الإسلامي أجرأ كعادته، فقرر المقاطعة بأغلبية عظيمة.

يجب أن نقف في هذا الموضع من تاريخ حركة غاندي العظيمة. إن هذه الحركة، رغم بعض العثرات التي لا مناص منها في غياب الإمام وخيرة أعوانه (لا سيما الأخوَين علي) الذين سُجنوا أيضًا، قد اجتازت السنة الأولى من حياتها بلا دليل، منصورة موفقة، وإن الخيبة التي عرفتها الصحف الإنكليزية بعد مؤتمر غايا لدليل واضح على ذلك الفوز المبين.[٥]

---

[٤] أما العناصر الثورية الداعية إلى العنف فقد كانت قليلة في مؤتمر غايا؛ لذلك كانت ضعيفة الأثر.

[٥] في مقالة لبلانش وطسن (صحيفة الوحدة، في ١٦ نوفمبر ١٩٢٢) «تعداد الفوائد التي جنتها الهند من جهادها بالمقاومة من غير عنف». وتثبت هذه الكاتبة أن إيراد الهند الداخلي نقص نحو ٧٥ مليون دولار، وأن إنكلترة خسرت بمقاطعة النسيج الإنكليزي في سنة واحدة ٢٠ مليون دولار، وتذكر أن الهنود السجناء يومئذٍ يبلغون ٣٠ ألف سجين، وتظهر أن نظام الحكومة الإداري قد اختل بتمامه، لكن بلانش وطسن معجبة إعجابًا قصيًّا بالغاندية، فهي إذًا تبالغ دون ريب في وصف نجاحها، وثمة شهادات أخرى لا تعرب عن هذا القدر من الارتياح؛ لأن حركة التضحية تصطدم بأثرة طوائف التجار وذوي اليسار، ولأن كثيرًا من الموظفين الذين قدَّموا استقالتهم في الحماسة الأولى استردوها فيما بعد، وليس من العقل أن تتصور عكس ذلك، ففي كل ثورة يظل كثيرون في المؤخرة أو ينكصون على أعقابهم، والمسألة هي هذه: هل يستمر التيار في الطبقات الدنيا أم لا؟ إليكم شهادة لا ريب في خطورتها وإنصافها:

إن «المانشستر غارديان» المشهورة باستقلال الرأي وبُعد النظر والتي تمثل أيضًا المصالح الكبرى المهددة مباشرةً بأخطار اللامعاونة الغاندية عهدت إلى بعض ثقاتها بالتحقيق في المسألة الهندية، فطاف في القطر الهندي ونشر سلسلة مقالات يشعر قارئها بتزايد قلق الإنكليز وحراجة موقفهم، رغم ما يظهره الكاتب من كره الحركة الغاندية (وهذا أمر طبيعي) ومن الرغبة في بخسها حقها، وإني ملخص المقالة الأخيرة المنشورة في ١٦ فبراير ١٩٢٣ (المانشستر غارديان الأسبوعي). يريد الكاتب إيهام نفسه أن خطة

ماذا يكون في المستقبل؟ هل تظهر إنكلترة، بعد أن علمتها الخطيئات السالفة، أمهر في إرضاء الأمة الهندية، أم يُصاب ثبات هذه الأمة بالكلال؟ إن الشعوب ضعيفة الذاكرة، ولو لم تكن دروس المهاتما منقوشة في سويداء الوجدان القومي من عهدٍ بعيد؛ لشككت كثيرًا في حفظ الهنود هذه الدروس زمنًا طويلًا؛ ذلك أن النابغة مهما تكن عظمته، سواءً أكان والذين يحيطون به على وفاقٍ أم لم يكن، فليس بقادرٍ على أن يعمل أو يُحدث أثرًا إلا إذا كان ملبيًا غرائز أمته وحاجات عصره ورجاء العالم.

غاندي قد أُصيبت بخسران مبين وأن لا مناص للامعاونة من انتهاج خطط مستحدثة، ثم يستدرك قائلًا: «لكن روح اللامعاونة ما زال، إنك تجد في كل مكان سوء الظن بالحكومة الأجنبية والرغبة الشديدة في التخلص منها. إن الطبقات النيرة وأبناء الحواضر قد أُشربوا هذا الروح، وانفعال الفلاح به سطحي، لكن أحوال القرى تنبئ بأنه سيستحكم فيها أيضًا عما قريب. يظهر أن الجيش لا يزال سليمًا، لكن جنوده يُؤخذون من القرى، وسيتبع الحركة إن لم يكن اليوم فغدًا، ويظهر أن روح اللامعاونة هو أقوى ما يكون. عند خيار الهنود، أي المعتدلين منهم، فإن هؤلاء ينفرون من الأساليب الثورية فقط، والعامة لا يشاطرونهم هذه النفرة، وقلوب الناس أقرب إلى جرأة دعاة اللامعاونة منها إلى حكمة المعتدلين وأناتهم.» ويقدر الصحافي الإنكليزي بعشر سنين الوقت اللازم لتنظيم الفلاحين الهنود كي يتوصلوا إلى العصيان المدني وعدم أداء الضرائب، لكن الحالة ستزداد سوءًا خلال هذه المدة، وقد أصبح الآن من المستحيل إخافة الهنود بالسجن، فهم لا يعرفون هذا الخوف. سنضطر إلى التذرُّع بذرائع قاهرة أعنف، ومن شأن الشدة أن تزيد الأحقاد، «الحل السلمي الممكن الوحيد، إن يكن ثمة حل لهذه المشكلة»، هو أن تقدم إنكلترة من تلقاء نفسها على الإصلاح الهندي وأن تكون السابقة في مضماره. لا أنصاف إصلاحات كتلك التي قررتها عام ١٩١٩ وحاولت إنفاذها منذ أقل من سنة، فهذه ليست بكافية والوقت ضيق. على إنكلترة أن تجمع مجلسًا وطنيًّا هنديًّا يمثل مصالح الهند ومذاهبها وآرائها جميعًا: من غاندي ومريديه إلى أمراء الهند، وأصحاب الأموال الأوروبيين، والمسلمين والهندوسيين والبارسيين والأوراسيين والنصارى والطوائف النجسة ... وعلى هذا المجلس أن يسن دستورًا أساسيًّا للهند المستقلة ضمن الإمبراطورية، وأن يعين مراحل تطبيق هذا الاستقلال الداخلي. بهذا وبهذا وحده نستطيع أن نحول دون تمزيق الإمبراطورية شر ممزق.

لا أدري كيف تتقبل حكومة الهند والدواوين الإنكليزية مثل هذا الاقتراح الذي تؤيده المانشستر غارديان بقوة بعد أن أدلى به مراسلها، ومن العسير عليَّ أن أصدق بأن غاندي ودعاة اللامعاونة يرضون أن يشتركوا وممولي أوروبة والهند في مجلس واحد، لكن الثابت هو أن «الاستقلال الداخلي» لم يعد موضوع جدل في الهند؛ لأنه أمر محتوم لا بد منه، في صورة من الصور، وليس أرعى للانتباه من تبدل لهجة إنكلترة، بعد مساعي غاندي، في كلامها على الهند، ولم يبقَ من أثر لاحتقار الأوروبيين الهنودَ، بل هم يتحدثون عنهم برعاية ظاهرة، ويجمعون على استنكار التدابير العنيفة الخرقاء التي كانت الذريعة القصوى التي تتذرع بها السلطة، وأحيانًا أولى ذرائعها، لقد فازت الهند، إن لم يكن مادة فمعنًى.

وهكذا ماتهما غاندي، إن مبدأ الأهمسا (اللاعنف) الذي جاء به، منقوش في صدر الهند منذ ألفي سنة: لقد جعله مهافيرا وبوذا وعبادة فشنو غذاء الملايين من النفوس، وقصارى غاندي أنه أدخل فيه دمه، دم بطلٍ من الأبطال، فهو يستوحي تلك الأخيلة العظمى: قوى الماضي الخامدة، الدفينة في سباتٍ مميت، وقد أيقظها صوته، فقامت لأنها رأت فيه صورتها، وليس غاندي قولًا فحسب، بل هو عمل وقدوة، لقد تجسدته الآلهة والقوى. ما أسعد الرجل الذي هو شعب، شعبه الملحود يُبعث فيه.

بيد أن أمثال هذا البعث لا تحصل اتفاقًا، وإذا نحن شهدنا روح الهند يثب من معابدها وغاباتها؛ فلأنه جاء العالم بالجواب المقدر الذي ينتظره العالم.

وفعلًا إن الجواب يجاوز حدود الهند بلا نهاية، والهند وحدها قادرة على أن تأتينا به، لكنه يثبت على السواء عظمتها وتضحيتها، ومن الممكن أن يكون صليبها.

ويظهر أنه لا مناص، كيما يُبعث العالم ويتجدد، من أن تضحي أمة بذاتها، فقد ضُحِّي اليهود لمسيحهم الذي حملوه وغذَّته آمالهم قرونًا، حتى إذا أزهر على الصليب الدامي في النهاية أنكروه، لكن الهنود أسعد منهم حظًّا؛ لأنهم عرفوا مسيحهم، فهم يمشون إلى التضحية التي يرون فيها نجاتهم جذلين مستبشرين.

بيد أن الهنود، كالنصارى الأولين، لا يدركون جميعًا معنى هذه الحرية الحقيقي، فإن أماني طائفة كبيرة منهم لا تتعدى حد السواراج في الهند، ورأيي أنهم سيبلغون هذه الغاية السياسية عاجلًا، فقد استنزفت الحروب والثورات دم أوروبة، وأفقرتها وأنهكت قواها، وعرَّتها من أبهتها الأولى في نظر آسية المضطهدة، فلن تستطيع إذًا أن تقاوم طويلًا أمم الإسلام والهند والصين واليابان التي أيقظتها الحادثات.

والأمر أيسر من ذلك لو لم يكن فيه إلا أن بضع أمم ستُزاد على الأمم المستقلة، مهما يكن من شأن الأنغام الجديدة التي قد تضيفها تلك الأمم إلى السمفونيا الإنسانية، الأمر أيسر لو لم تكن هذه القوى الآسيوية حاملة باعثًا جديدًا على الحياة وعلى الموت، وكذلك (وهذا أجلُّ خطرًا) على العمل للإنسانية جمعاء، وبعبارة أخرى لو لم تكن حاملة لأوروبة المنهوكة عنصرًا جديدًا، عنصر قوة وحياة.

لقد عصفت بالعالم عاصفة العنف، وليس في هذه السَّموم التي تهب على حصاد مدنيتنا فتحرقه ما هو غير منتظر، فإن عصورًا من الصلف القومي الفظ، المغرى بنظريات الثورة الفرنسية، والمضخَّم والمذاع بتقليد الديمقراطيات الأعمى، تلك العصور المتوَّجة بعصر صناعي لا أثر للرحمة الإنسانية فيه، يسيطر عليه ممولون جِشاع، ومكينية مذلة مستعبدة،

ومادية تموت فيها الروح خنقًا. ستؤدي تلك العصور حتمًا إلى الاختباطات العشواء التي تضيع فيها نفائس الغرب وأعلاقه. ليس بحسبنا أن نقول إن ثمة وجوبًا، فلا بد من القول إن ثمة قدرًا لا محيص عنه، فكل أمة تذبح أختها باسم مبادئ واحدة تستر مصالح وغرائز قابيليَّةً واحدة، كلهم — غلاة القومية والفاشيون والبلاشفة والشعوب والطبقات المضطهِدة والشعوب والطبقات المضطهَدة — كلٌّ يدعي لنفسه حق العنف الذي يبدو له أنه الحق المطلق، وينكره على سائر الناس. منذ نصف قرن كانت القوة تغلب الحق، أما اليوم فإن الخَطب أعظم: أصبحت القوة هي الحق، لقد افترسته.

في هذا العالم القديم المتداعي، لا ملجأ ولا رجاء، ليس فيه نورٌ ساطع، إن الكنيسة تسدي نصائح أخلاقية مسكِّنة موزونة؛ خشية أن يقوم بينها وبين أرباب الحول والطول خصام، ثم هي تنصح فقط ولا تجعل نفسها قدوة، وثمة أيضًا دعاة إلى السلام غامضون يَثغون ثُغاءهم بضعفٍ وفتور، وإنك لتحس أنهم مترددون، فهم يحدثون عن عقيدة ليسوا على يقين من أنها في صدورهم، فمن يثبت لهم صحة هذه العقيدة؟ وكيف تثبت لهم في هذا العالم الذي يجحدها؟ كما تثبت كل عقيدة: بفعلها.

تلك هي «الرسالة إلى العالم» كما يسميها غاندي، رسالة الهند: «لنضحِّ أنفسنا!»

ولقد أعاد تاغور هذا القول في كلامٍ ساحر؛ لأن تاغور وغاندي واحد في هذا المبدأ العلي:[٦] «... أرجو أن ينمو هذا الروح، روح التضحية والصبر على العذاب والرضاء بالألم ... تلك هي الحرية الحقة ... لا شيء أغلى منه قيمة، حتى ولا الاستقلال الوطني ... إن للغرب إيمانًا راسخًا بالقوة المادية وبالغنى المادي، فعبثًا يصرح داعيًا إلى السلام ونزع السلاح! إن زمجرة وحشيته تعلو على ذلك الصوت، إن مثله مثل سمكة تجرحها وطأة الماء فهي تحاول أن تطير في الجو، فكرٌ حسنٌ! لكنه يستحيل على السمكة أن تطير. علينا نحن الهنود أن نثبت للعالم هذه الحقيقة التي لا تقتصر على جعل نزع السلاح من الممكنات، بل تحوله إلى قوةٍ. سيبرهن هذا الشعب الأعزل أن للقوة المعنوية سلطانًا أكبر من القوة البهيمية. ويدل تطور الحياة أنها طارحةٌ عنها تدريجًا عبء سلاحها الباهظ وذلك القدر العظيم من اللحم لتبلغ اليوم الذي يصبح الإنسان فيه ملك هذا العالم البهيمي. سيأتي يوم يبرهن فيه الإنسان الضعيف، ذو القلب، وقد ألقى عنه سلاحه بأجمعه، أن الحلماء الودعاء هم وارثو الأرض. من المعقول إذًا أن يستنجد غاندي الضعيف البنية، المحروم من

[٦] رسالة ٢ مارس ١٩٢١، نُشرت في «المجلة الحديثة» مايس ١٩٢١.

كل الوسائل المادية، بما للضعاف الوادعين من سلطانٍ كبير كامن في قلب أبناء الهند التي أُهينت وأُنزلت عن عرشها. إن الأقدار في الهند اختارت «النارايانا» لشد أزرها لا «النارایاني سنا»، قوة الروح لا قوة الساعد. فلا مناص لها من أن ترفع التاريخ الإنساني عن مستواه الوحل في الصراع المادي، إلى ذرى الجهاد الروحي. ليست غايتنا السواراج مهما خُدعنا بالعبارات التي تلقيناها عن الغرب. إن جهادنا جهادٌ روحي، جهاد في سبيل الإنسان. يجب أن نطلق الإنسان من الحبائل التي نسجها حوله، أعني من أوضاع الأثرة القومية. يجب أن نقنع الفراشة بأن الجو الطلق خيرٌ لها من وقاية الشرنقة ... ليس في لغتنا لفظٌ دالٌّ على معنى الأمة، فإذا استعرنا هذا اللفظ من الشعوب الأخرى لم يكن صالحًا لنا؛ إذ لا بد لنا من محالفة «النارايانا» الموجود الأسمى، ولن يجدي علينا هذا النصر شيئًا إلا أننا قد أعلينا كلمة الله، وحققنا ملكوته. إذا كنا قادرين على أن نتحدى الأقوياء والأغنياء والمدججين بالسلاح، بكشفنا للعالم عن سلطان الروح الخالد، فإن قصر المارد الذي يدعى «المادة» سيتداعى وينقض في الفضاء، وحينئذٍ يوفق الإنسان إلى السواراج الحقيقي. نحن صعاليك الشرق، في أثمالنا البالية، سننعم بالحرية على الإنسانية جمعاء.»

أي تاغور وغاندي، يا نهرَي الهند! إنكما كالهندوس والغانج، تضمان في عناقكما الشرق والغرب. هذا فاجعة العمل البطولي وذاك حلمٌ نوراني عظيم، وكلاهما فيضٌ من الله على هذا العالم المحروث بسكة العنف، فاطرحا فيه بِذارَكما.

يقول غاندي: «إن غاية جهادنا صداقتنا والعالم أجمع ... لقد أشرق اللاعنف على الناس وسيظل مشرقًا، هو بشير السلام في العالم.»

إن السلام في العالم لا يزال بعيدًا، فلسنا من الذين تضلهم الأوهام، لقد شهدنا في نصف قرن كثيرًا من أكاذيب النوع البشري ومن دلائل جبنه وقسوته، ولكن هذا لا يمنع من أن نحبه؛ لأن في أحط الناس أَثارةً من الروح الإلهي ... إننا لا نجهل شيئًا من الضرورات المادية المحتومة التي ترزح بأعبائها أوروبة في القرن العشرين، ولا نجهل الجبرية الباهظة في الأحوال الاقتصادية التي تمسك بخناقها، ولا عصور الشهوات والأهواء والضلالات المتحجرة التي تحيط بنفوس رجال العصر كأنها قشرة غليظة لا ينفذ منها الضياء، ولكننا نعرف أيضًا معجزات الروح: إني رأيت بروقه في التاريخ تشق سموات أشد ظلمة من سمائنا، وأنا الحي ساعةً من الزمن، أسمع في الهند طبل «سيوا» إمام

الراقصين الذي يحجب نظره الضاري، ويسيطر على خطواته؛ لينجي الكون من السقوط في الهاوية.»[٧]

إن الساسة العمليين المؤمنين بالعنف (الثوريين منهم والرجعيين) يسخرون من مذهبنا هذا، وهم إذًا يدلون على جهلهم بالحقائق البعيدة. ليسخروا ما شاءوا! ذلك هو اعتقادي، إني أراه مسفًّهًا مضطهَدًا في أوروبة، ونحن في فرنسة حفنة (بل أنحن حفنة حقًّا؟) ولكن لو ظللت وحدي، فماذا يهمني تفردي؟ ليست ميزة الإيمان أن ينكر عداء العالم له، بل أن يراه ويسلِّم به وأن يصارعه، وهذا خير؛ لأن الإيمان جهاد و«لا عنفنا» هو أعظم جهاد. ليست سبيل السلام سبيل الضعف، نحن أشد عداءً للضعف منا للعنف، فلا يقوم شيء بلا قوة: لا الشر ولا الخير، والشر بتمامه أفضل من الخير المخصي. إن السلمية البكَّاءة مميتة للسلم: هو جبنٌ وضعفُ إيمان، فليخرج من بيننا الذين لا يؤمنون أو الذين يخشون! إن سبيل السلام تضحية النفس.

تلك هي قدوة غاندي الذي لا ينقصه إلا الصليب. كلنا يعلم أن رومة لولا اليهود كانت تضن به على المسيح، والإمبراطورية البريطانية ليست دون الإمبراطورية الرومانية قدرًا، لكنها الحماسة دبت، وقد تحركت لها أعماق روح الشعوب الشرقية، وهذه هَزاهزها تنبسط على الأرض جمعاء.

إن للظهورات الدينية الكبرى في الشرق نظامًا. أحد أمرَين: إما أن يُنصر ظهور غاندي وإما أن يُعاد، كما أُعيد منذ قرون بوذا والمسيح، حتى يتجلى تجليَّه الكامل في نصف إلهٍ من البشر، مبدأ الحياة الذي يقود الإنسانية في مرحلتها الجديدة.

فبراير عام ١٩٢٣

[٧] شذرة مقتبسة من أقدم دعاء إلى «سيوا» في القصة التمثيلية «مودرا-راكشاسا» من وضع فيشاخدَّاتا.

غاندي بعد إطلاق سراحه

فصلٌ كتبه المؤلف للطبعة الحادية والثلاثين من هذا الكتاب

منذ ثلاثة أشهر ظهر هذا الكتاب في طبعته الأولى.

ومنذ ذلك اليوم شهدنا ثلاث حادثات، زادت خطوط الصورة التي صورناها وضوحًا، وإن لم تنَلْها بتبديل.

إن حزب السواراج الهندي الذي أَلَّفه أعظم زعيم سياسي في الهند وصديق غاندي س. ر. داس — الحزب الذي يجمع بين أساليب اللاعنف وبين الاشتراك في المجالس التشريعية — قد فاز في انتخاب آخر ديسمبر ١٩٢٣ فوزًا مبينًا.

إن الأخوَين علي، زعيمَي مسلِمي الهند بلا منازع وصديقَي غاندي، بعد أن قضيا سنتَين في السجن، قد رجعا إلى مكانهما في رأس الحركة الوطنية الهندية، وأصبح أحدهما وهو مولانا محمد علي، رئيسًا لمؤتمر جميع الهند.

ثالثًا وأخيرًا، إن غاندي قد أُطلق سراحه.

علمت أوروبة أن المهاتما أُطلق سراحه، لكنها لم تعلم في أي ساعات ضنكةٍ كان ذلك، لقد كتموها أن الحكومة الإنكليزية أوشكت أن ترى أسيرها يموت بين يدَيها.

كان سجينًا في يرافادا، قرب بوتا (مقاطعة بمباي)، وكان يزداد وهنًا، ونحوله بلغ الحد، ففي ديسمبر قاسى أوجاعًا شديدة لم يكترثوا لها، واستولت عليه الحمى، وكانت أسرته التي لا تستطيع أن تزوره غير عالمة بشيء من ذلك.

لكن طمأنينة الحكومة أُصيبت بغتة في أول يناير بهزة: أصبح المهاتما في حال مزعجة حتى اضطروا إلى التعجيل في دعوة الكولونل مادوك (طبيب مدني) إلى فحصه، فوجد أنه مصاب بالزائدة في أشد نوباتها، ولولا حزم الجراح لقضى غاندي نحبه، فإن مادوك لم ينتظر تفويض الحكومة، بل تحمَّل تبعة نقل السجين حالًا على أتومبيله الخاص إلى مستشفى ساسون في بوتا ثم أضجعه على خشبة حملها وبعض الطلاب، وفي المساء (السبت في ١٢ يناير) قام بالعملية الجراحية، ولم يعلم بذلك أحد خارج المستشفى، ولم يُنبَّأ به أهل المهاتما إلا من بعد، لكن الجزع داخل المستشفى وفي أندية الحكومة كان بالغًا الغاية. لقد كانت المسئولية على رجال السلطة الإنكليزية باهظة جدًّا: إن يمت المهاتما فإن الهند بأسرها تثور لا محالة.

وظل المهاتما وحده مطمئنًا وديعًا، وقبل بدء العملية بساعة استدعت السلطة — لتخفف تبعة عملها الخطر، فيما لو ساءت المغبة وتمت إرادة الله — ساستري أحد زعماء الحزب الهندي الحر الذي كان خصمًا لغاندي، لكن غاندي يجله، ليكون شاهدًا عليها، وقد نشر ساستري وصف تلك الساعة الرهيبة.[١]

سُئل غاندي أن يوقع رقعة يصرح فيها عن رضاه بالعملية، فتناول نظارتَيه وقرأ الرقعة بإمعان، ثم استأذن بتغيير نصها وأملى رسالة يخاطب بها الكولونل مادوك ويشكر للأطباء ورجال الحكومة حسن عنايتهم، مؤكدًا ثقته في الجراح وطالبًا إجراء العملية بلا إبطاء، ثم رفع ركبتَيه وأخذ قلم رصاص، فوقع الرقعة بيد راجفة، واختلى بساستري برهة بينما كانوا يعدون غرفة العمليات، فتحدث المهاتما إلى صاحبه بهدوء، وهاك أقواله بنصها: «إن خلافي مع الحكومة باقٍ وسيبقى ما بقيت الأسباب التي نشأ عنها. لا يمكن أن يكون ثمة شرط، إذا كانت الحكومة ترى أن حججي راهنة وأني بريء، وإذا كانت ترى أنها سجنتني كفاية، ففي ميسورها أن تطلق سراحي، وفي هذا العمل شرف لها ... تقدر الحكومة أن تطلق سراحي، ولكن لا ينبغي أن يكون ذلك لعللٍ باطلة ...»

(أي إنه كما سيقول صراحة لا يرضى بإطلاق سراحه بحجة المرض).

ثم قال إنه «وإن يكن الخلاف بينه وبين الحكومة في أشده، يحب الإنكليز شخصيًّا.» وإذا كان مقدرًا للشعب الهندي بعد إطلاق سراحه أن يحدث اضطرابًا «وهو ما لا يرجوه» فإن دعاءه إلى الله أن يكون ذلك بروح اللاعنف.

[١] في جريدة «سوارايا» الثلاثاء في ١٥ يناير.

فسأله ساستري هل يريد أن يبلِّغ شعبه رسالةً؟ كان غاندي شديد الرغبة في ذلك، سيما وفمه مكموم منذ أُلقي في السجن. لقد أرسل بعد الحكم عليه رسالة إلى رئيس المؤتمر الوطني الهندي ليقرأها على أبناء قومه، لكن الحكومة أمسكت الرسالة وسألته تعديلها فلم يقبل. أي رجل في مثل حالته، يعلم أنه قد لا ينجو من هذه العملية الجراحية، يعفُّ عن انتهاز الفرصة، فلا ينص على أمته آخر مشيئاته؟ لكن المهاتما، بما أُوتي من شرف النفس العجيب، وهي سجية من سجاياه لا تكاد تجد لها مثيلًا في هذا الزمن، رفض ذلك، كان يرى أنه مقضي عليه أن يلزم الصمت، فكان جوابه لساستري أنه سجين الحكومة، فيجب عليه العمل بقانون الشرف الذي يعنو له السجين. هو في حكم الميت مدنيًّا، فليس لديه رسالة يبلِّغها …

في تلك البرهة — الساعة العاشرة مساءً — فُتح الباب، جاءوا ليحملوه إلى طاولة الجراحة.

استمرت العملية عشرين دقيقة، وحدث حادث كادت العاقبة من جرائه تكون مفجعة، لم يكد العليل يُنوَّم بالكلورفورم حتى انطفأ النور الكهربائي، فتعادوا لإحضار قناديل زيت أو ما أشبه، وانكشف الجرح عن قرحةٍ خفيةٍ مُصدأة عميقة جدًّا، فاضطروا أن يتركوا في الجرح أنبوبًا طوله ست أصابع لإفراغ القرحة من صديدها، لقد احتمل غاندي العملية احتمالًا حسنًا، لكن القلق استمر تلك الليلة بطولها.

وفي اليوم التالي جاء أبناء غاندي الذين أُنبئوا في النهاية، ثم تبعتهم امرأته، وظلت الهند بأجمعها، بضعة أيام، فريسة حمى الجزع، وقرر مؤتمر جميع الهند، بإشارة رئيسه محمد علي، أن يكون ١٨ يناير يوم صلوات عامة في القطر من أقصاه إلى أقصاه، وطُولبت الحكومة من كل صوب وحدب، بإطلاق سراح غاندي، حتى في صحف الحكومة: يجب الخروج بأسرع ما يمكن من المأزق الحرج الذي رمت فيه حياة غاندي المهددة، أولئك الذين لا يزالون موصدين عليه باب السجن. وفي ١٧ يناير اسْتُدعي حاكم بمباي بغتة إلى دلهي؛ ليقابل اللورد ريدنغ نائب الملك. إن دورة المجلس التشريعي الهندي الجديد ستبدأ في نهاية الشهر، فيجب أن تمنع الحكومة هذا الباعث من بواعث الفتنة والاضطراب، وفي ٤ فبراير صدر الأمر بإطلاق سراح غاندي.

الآن إذ نجا المهاتما من وساوس ضميره، وأصبح طليق الصوت كما أنه حر الفكر، فقد عجل إلى كتابة رسالةٍ إلى رئيس مؤتمر جميع الهند (٧ فبراير).[٢]

استهل الرسالة بالإعراب عن أسفه لصنيع الحكومة الذي لا يقدر أن يرضى به إذا اعتبرته «عفوًا» عنه.

«يسوءُني أن الحكومة أطلقت سراحي قبل الأوان لأني مريض، إن هذا النوع من الحرية لا يسرني بوجه من الوجوه؛ لأني لا أرى في المرض ما يحمل على إطلاق سراح السجين.»

وهو بكياسته المعهودة يشكر الذين رعوه وعُنوا به، سواء في السجن أم في المستشفى، جميعًا (لم يغفل أحدًا)، ويعلن أنه غير صالح لأن يعمل، إلى حين، فهو بحاجة إلى الراحة بضعة أسابيع، وكذلك يُعوزه ردح من الزمن ليطلع على أحوال الهند الجديدة؛ لأنه ظل بمعزل عنها في هذَين العامَين، لكن هذا لا يمنعه من إسداء بعض النصائح الرشيدة التي تدل على أنه لم يتغير حكم من أحكامه الأولى، ولا مادة من خطته المثلى.

يجب بادئ بدأة أن يُعاد توحيد القوى الهندية جميعًا؛ لأن الوحدة في غيابه قد تضعضعت.

«مهما تكن معرفتي بأحوال وطني الحاضرة قليلة، فهي كافية لأحكم بأن مشاكلنا الوطنية أدعى إلى الحيرة اليوم منها في أيام باردولي. كل سواراج (حكم ذاتي) هو خلو من المعنى إذا لم تتحد الأقوام والأديان جميعًا. إن هذا الاتحاد الذي حسبته سنة ١٩٢٢ غاية قريبة المنال قد تداعى بين الهندوس والمسلمين. إذا كنا نريد أن تستقل بلادنا فيجب علينا أن نوثق بين الطوائف المختلفة عروة لا انفصام لها. لا أسألكم أن تصلوا من أجلي وتحمدوا الله على شفائي، فإن اتحادكم يعيد إليَّ الصحة بأسرع مما تعيدها عناية الأطباء. لقد أغمَّني ما علمته من اختلافكم، ولا سبيل لي إلى الراحة ما دام هذا العبء الباهظ يثقل كاهلي. إني موجِّه وجهي شطر الذين يحبونني أجمعين، قائلًا لهم: اتحدوا. لا ريب عندي في أنه عمل عسير، ولكن لا يعسر علينا شيء إذا كان إيماننا بالله حيًّا. فيا أيها الهندوس والمسلمون اطرحوا جانبًا سوء الظن بعضكم ببعض. إنه الضعف يولد الخوف، والخوف يولد سوء الظن، فلنضرب نحن وإياكم بمخاوفنا عرض الحائط، ولو أن إحدى فئتَينا أصبحت لا

[٢] جريدة «هندو» بمدراس في ٨ فبراير.

تخاف الأخرى لم يكن بيننا نزاع قط. أعلم أننا في الحقيقة نحب بعضنا بعضًا كالإخوة، لا أسألكم إلا أن تشاطروني جزعي ورجائي في أن نتحد ...»

أما خطته في الجهاد فلم يعرُها تبديل قط. إن تفكيره في عزلته مدة عامَين قوَّى يقينه بصلاح تلك الخطة وبليغ أثرها، أولًا المغزل، الدواء الوحيد لخصاصة الهنود، اتحاد الطوائف، إبطال مبدأ النجاسة، اتباع قانون اللاعنف نيةً وقولًا وفعلًا: «إذا نحن وفينا هذا البرنامج حقه فلن نضطر إلى التذرُّع بالعصيان المدني، ولكن يجب أن أقول إن تدبري الأمور وتفكيري الطويل لم يضعفا إيماني بالعصيان المدني، فهي خطة عادلة فعالة، وأؤكد أنه سلاح في سبيل الحق وأنه واجبٌ على الأمة متى يصبح كيانها الحيوي مهددًا، ويقيني أنه أخف ويلًا من الحرب لأن العصيان المدني إذا انتصر عمت فوائده كلا الخصمين، بينما الحرب تصيب بويلاتها الغالب والمغلوب على السواء.»

أما حزب «السواراج» الجديد الذي ألفه صديقه س. ر. داس فإن غاندي لا يبدي رأيًا في برنامجه. لقد وجد نفسه إزاء حالة سياسية جديدة لا بد له عن درسها قبل الحكم عليها. كان السواراجيون (حزب الشمال من وطنيي الهنود، يدعون إلى اللاعنف، لكنهم يعملون في دائرة الوسائل البرلمانية التي منحهم إياها الدستور المعدل) قد ربحوا في انتخاب آخر ديسمبر للمجالس التشريعية ١٠٣ كراسي في المجلس التشريعي لجميع الهند، وأصبحوا في أغلب مجالس المقاطعات أقوى حزب هندي،[٣] فانتهزوا الفرصة وقدموا في آخر ديسمبر طائفة من المطالب التي قرروها: إلغاء القوانين الجائرة، تأسيس حكومة مستقلة استقلالًا داخليًّا بلا إبطاء، تأليف مؤتمر لوضع مبادئ الدستور الهندي الذي يسنه فيما بعد المجلس الجديد ويجعله في الصورة القطعية. بل إن السواراجيين ذهبوا إلى أبعد من هذا، فطلبوا اتحاد الشعوب الآسيوية لتحرير آسية؛ لذلك لم يكن غاندي قادرًا على إهمال هذه الحوادث الجديدة، سيما أن احترامه وحبه لزعماء هذه الحركة أمثال س. ر. داس الذي يعرف إخلاصه وصدق إيمانه، يقضيان بأن لا ينكر هذا الخروج على مبادئ اللامعاونة التي

[٣] ويزيد س. ف. أندريوس في مقالة نشرتها «المانشستر» الأسبوعية (أول فبراير) أن لهذا الفوز دلالة ذات شأن؛ لأن حزب «سواراج» لم يحصل على إذن المؤتمر الوطني بالاشتراك في الانتخابات إلا قبل التصويت بأيام قلائل، وظلت طائفة كبيرة من دعاة اللامعاونة أرادت اتباع مذهب غاندي تمامًا، في معزل عن حركة الانتخاب، فلو أن جيش اللامعاونة برمته أجمع على خطة واحدة في ذلك الانتخاب لأُوتي نصرًا مبينًا لا غاية بعده.

وضعها، إلا بعد الروية والتحقيق، ويقول غاندي: «لا ترجوا أن تسمعوا مني رأيًا في هذه المسألة الدقيقة، أعني انتخاب أعضاء المؤتمر للمجالس التشريعية وللمجلس الكبير، فأنا، وإن لم يتغير رأيي في مقاطعة مجالس الحكومة ومحاكمها ومدارسها، ليس لديَّ من الحقائق ما يأذن لي بإبداء رأي في هذه التبديلات الطارئة على خطتنا الوطنية. لا أريد أن أبدي رأيًا قبل مناقشة مواطنيَّ الأجلاء الذين رأوا، لمصلحة الوطن، أن من واجبهم العدول عن مقاطعة المجالس التشريعية.»

ويختم كلامه مؤكدًا، مرة أخرى، أنه لا يحارب الإنكليز بل حكومتهم وسياستها الجائرة.

وثمة رسالتان نُشرتا خلال شهر فبراير، تشهدان أن المرض[٤] غير قادر على إضعاف عزيمته وأن جهود الأطباء لحمله على السكينة غير مجدية في منعه عن القيام بواجب الرياسة.

في ١٦ فبراير[٥] نشر غاندي تصريحًا موضوعه الحوادث الأخيرة في أفريقية الجنوبية؛ إذ أخذ برلمانها ينظر في قانون «حصر الطوائف أو الفصل بينها» الذي يجعل الهنود ضمن حدود ضيقة، فاحتج غاندي على نكث العهود التي وقِّعت سنة ١٩١٤ وأعاد ذكر تاريخ الحركة الهندية في أفريقية الجنوبية.

وفي ٢٥ فبراير[٦] نشر رسالة إلى السيخ العقاليين وكانوا قد اصطدموا بالشرطة البريطانية، فأصلتهم نارًا حامية بأمر والٍ إنكليزي، فجاء غاندي يحضهم على اللاعنف.

والآن، أنأتي على وصف الحماسة الشديدة التي دبت في الهند بعد إطلاق سراح الرئيس؟ أنذكر دعوة محمد علي إذ قضى بأن يكون العاشر من فبراير يوم صلوات عامة فيشترك الهنود جميعًا في حمد الله لمنه بالشفاء على المهاتما، واتحاد الطوائف والأقوام كافة في هذا الحمد الديني، والمواكب الإسلامية الحافلة، والأعياد التي قامت في الهند من أقصاها إلى أقصاها؟

لقد فاضت على غاندي محبة أمته، حتى كاد الأطباء لا يستطيعون وقاية عليلهم المتماثل للصحة، بل إن حراسه أنفسهم وكثيرًا من الإنكليز سرت إليهم عدوى هذه المحبة،

---

[٤] ما زالت حياة غاندي إلى يومنا هذا في خطر (آخر مارس ١٩٢٤).

[٥] جريدة «بنغالي» في كلكتا، ١٦ فبراير.

[٦] جريدة «الديلي نيوز الهندية» في كلكتا، ٢٦ فبراير.

مثل ذلك القائد المتقاعد، البالغ من العمر ٨٢ سنة، الذي حدَّثت عنه صحيفة إنكليزية فقالت: إنه يأتي إلى المستشفى كل يوم، حاملًا باقة أزهار، فيدخل على المهاتما ولا يقدر على منعه أحد، فيصافحه ثم يمضي قائلًا له: «هيا يا شيخي! لا بأس عليك.»

وما فتئ غاندي مطمئنًا، مسيطرًا على ذاته، آخذًا على نفسه التحدث إلى العُوَّاد طويلًا. هو نحيلٌ منكمش «قد خسر نصف حجمه، فإذا رأيته لم تتمالك عيناك عن ذرف الدموع»، لكن من يسمع حديثه، بصوته الهادئ الرقيق وكياسته العاطفة، ينفعل لتلك الطمأنينة، في سويداء فؤاده. إن من عرفه قبل سجنه، ثم رآه في فراش علته (مثل ذلك الفتى البارسي الذي قص عليَّ، هذه الأيام، كيف عاده في المستشفى) يعجب جد العجب لما يشهده من تغيير. كنت تحس أن المهاتما قبل سجنه حزين مغتم، أما الآن فهو من قمة رأسه إلى قدمَيه فيضٌ من النور: «نفسٌ يحق لها القول إنها والدنيا على سلام.»[٧]

لا بد لنا من ختم هذا الفصل بينما الهند لا تزال في جهاد، عاقدين النية على تتبع الحوادث في الطبعات الجديدة من هذا الكتاب. نقف الآن عند رفض السواراجيين الهنود في المجلس التشريعي الميزانية التي عُرضت عليه، إثباتًا للمبدأ الوطني وإنذارًا للحكومة بأن عليها منذ اليوم أن تحسب لهذا الحزب حسابًا، وهم ينتظرون ما ستقترحه إنكلترة لحل القضية الهندية.

فهل تصل الاقتراحات؟ بل هل تصل قبل فوات الأوان؟ يبدو لنا أن وزارة العمال الإنكليزية ليست أميل من الوزارات السابقة إلى منح الهند استقلالها الداخلي، ولم يخيب تصريح رمزي ماكدونالد رجاء مؤلف هذا الكتاب (الذي أصبح لا يرجو خيرًا في السياسة الأوروبية) بقدر ما أورث أصدقاء الهند وإنكلترة الكُثار من خيبة. لا نكران أن المعضلة مفجعة للفريقَين على السواء، فإن إنكلترة خربت الهند لتنتفع هي، لكنها إذا أعادت للهند استقلالها السياسي والاقتصادي، فالدمار يكون نصيب عمال مانشستر. إن غاندي من الرجال القلائل الذين يعلون فوق مصالح أحد الفريقَين المتنازعين؛ ليبحثوا عما يكون فيه

[٧] ديليب كومار روي. وددت لو أنقل هذا الحديث الذي دار بين صديقي الموسيقي الهندي د. ك. روي وبين غاندي في مستشفى بونا (٢ فبراير) عن الموسيقى، فإنك تحس خلاله روح المهاتما الكبيرة المأخوذة بجمال الفن، وهو يعتقد «أنه لا سبيل إلى تطور ديني في الهند إلا بعون الموسيقى»، لكنه يرى (ما رآه حكماء اليونان وغوتي في هذا العصر) أن الفن الأجل هو في الحياة الأجمل (بمباي كرونكل في ٥ فبراير).

الخير لكليهما على السواء، ولكن يجب أن يجد في إنكلترة أندادًا متحلين بمثل شرف نفسه وسعة فكره، فهل يكون الأمر كذلك؟ ندعو الله أن يهدي الأمة البريطانية سواء السبيل.

وعلى كلٍّ فإن إنكلترة لم تعد محمولةً على استصغار قوة خصمها وشأن السلاح الذي يحارب به: اللاعنف. أما رجال السياسة الأوروبيين الذين قد لا يزالون لقيمة ذلك السلاح منكرين، فليقرءُوا هذه النبذ من بحثٍ نشرته الجريدة الإنكليزية الرشيدة، غير المتهمة بأن هواها مع الغانديين، أعني «المانشستر غارديان الأسبوعي» في ١٥ فبراير: لنفكر قليلًا في قوة هذا السلاح العجيبة، الذي يجاهدون به في السنوات الأخيرة، على صورة السكون المطلق. لقد كان أول مظهر خطر من مظاهره في دائرة واسعة، يوم أضرب عن الأكل النسوة المطالبات بالحقوق السياسية، وكانت «السن فين» في البدء جماعة غايتها المقاومة الانفعالية المطلقة، فكانت تنظر إلى كل ما هو إنكليزي في أيرلندة كأنه لم يكن: المحاكم ودوائر البريد وجباة الأموال الأميرية والشرطة ... وقد أصبح البنجاب اليوم مختبرًا كيماويًّا تجرب فيه قوة هذه المادة المنفجرة العجيبة الجديدة التي لا تنفجر، لكنها قادرة أن تخرج الخصم الذي يحارب بها من ميدان القتال. من قواعد السياسة الحرة أنه يجب على كل حكومة أن تقوم على رضاء المحكومين، ويبدو لنا أن أية حكومة في هذا العصر، حتى في الهند، عرضة للاضمحلال إذا أجمع عدد كبير من رعاياها على عدم الإتيان بحركة لمساعدتها، بله على أن لا يتناولوا طعامًا في سجونها. كانت وزارة الداخلية قانطة لما وضعت الحرب الكونية حدًّا لإضراب النساء عن تناول الطعام، وحكومة البنجاب هل تعلم اليوم علم اليقين ما يجب عليها أن تصنع؟ جرت العادة إلى يومنا هذا، أن ننظر جميعًا إلى المقاومة الانفعالية الصرفة واقتصار الأمة على عدم مساعدة الحكومة بشيء، كسلاح غير فعال في النهاية، إزاء القوة القاهرة، إذا اعتزمت الحكومة التذرع بها، وقد يكون لا مناص لنا، وإن لم تتضح هذه المسألة بعد، من إعادة النظر وتمحيص آرائنا في القوة السياسية، ومن التسليم بأن في بعض التعاليم، مثل «أَدِرْ خدَّك الأيسر» إشارة إلى حركة سياسية فعالة، وليس كما يقول «باكون» مبدأ «نظام أخلاقيٍّ مجرد جدير برهبان الأديرة».

آخر مارس ١٩٢٤

هنـــداوي